خَصائِصُ التَّفْكيرِ الْعَروضيِّ اللُّغَويِّ
بَيْنَ نَظْمِ الْمَنْثورِ وَنَثْرِ الْمَنْظومِ

للدكتور محمد جمال صقر *

الْمُقَدِّمَةُ

نَظْمُ الْكَلامِ وَنَثْرُه

[١] في اللغة العربية نوعان من الكلام الفني : مَنْظومٌ ، ومَنْثورٌ ، مُتَناقِضانِ بوُجود العَروض وفُقوده – والعروض وَزْن وتَقْفية ، أي تَكْـرارُ مُرَكَّباتِ صَـوْتيَّةٍ لُغَويَّةٍ، عَلى نَحْوٍ خاصٍّ يُدْرِكُه المتلقي ويَرْتاحُ لَه – فإن وُجد فالكلام منظـوم ، وإن فُقد فالكلام منثور ، ولا ثمرة الآن للاختلاف في أسْبَقيَّة أحدهما ؛ فقد اجتمعـا معًـا ، ولولا وجودُ ضدٍّ ما تَمَيَّزَ ضِدٌّ !

والنَّظْم في العربية الجَمْع ، والنَّثْر الفَرْق [١] . والجمع والفرق حالان طبيعيّتان تتنازعان الأشياء ، فتنقسم عليهما ؛ فإما مجموعة وإما مفروقة ، وكذلك الكلام الفني ، ولكنَّ معْيارَ تَقْسيمِه العَروضُ ؛ فالكلام الفني المنظوم كأنه دُرٌّ مجموع في عِقْدٍ سِـلْكُه العَروض ، والكلام الفني المنثور كأنه دُرٌّ مفروق بلا عِقْدٍ ولا سِلْكٍ . ولقـد أفـضى طول تنافس هاتين الحالين في تنازع الكلام ، إلى تأثير كلٍّ منهما في الأخرى ، حتى تَحَوَّلَتْ إليها عَفْوًا أو قَصْدًا ؛ فتَنَوَّع الكلام من حيث نظمه ونثره ، على ستة أنواع [٢]:

١ مَنْظومٌ طَبيعيٌّ ، نشأ بوُجود العروض .

---

* أستاذ النحو والصرف والعروض المساعد بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة .

١ ابن منظور : ن ظ م ، ن ث ر .

٢ بَوَّبَ ابن أبي الإصبع ٦٥٤هـ ، لنثر المنظوم ، بابَ الحَلِّ ، قائلا – ٤٣٩ – : " هُـوَ أنْ يَعْمِـدَ الْكاتِبُ إلى شِعْرٍ لِيَحُلَّ مِنْهُ عَقْدَ الْوَزْنِ فَيُصَيِّرَه مَنْثورًا " – ثم بَوَّبَ لنظم المنثـور بـابَ العَقْـد ، قائلا –٤٤١– : " هُوَ ضِدُّ الْحَلِّ لِأَنَّه عَقْدُ النَّثْرِ شِعْرًا " ؛ فأكَّدَ تشبيه الكلام المنظوم بدُرٍّ مجمـوع في عِقْدٍ سِلْكُه العَروض ، والكلام المنثور بدُرٍّ مفروق بلا عِقْدٍ ولا سِلْكٍ . ولكنني وجـدت الحَـلَّ يتسع عند ابن الأثير ٦٣٧هـ – ١/١٣٤ ، ١٤٩ – لحل آيات القرآن الكريم والأخبار النبويـة ؛ فعزَفْتُ عن مُصْطَلَحَي الحَلِّ والعَقْدِ كليهما .

٢ مَنْثورٌ طَبيعيٌّ ، نشأ بفقود العروض .
٣ نَظْمُ مَنْثورٍ طَبيعيٌّ ، نشأ بإيجاد العروض المَفْقود ، عَفْوًا .
٤ نَثْرُ مَنْظومٍ طَبيعيٌّ ، نشأ بإِفْقاد العروض المَوْجود ، عَفْوًا .
٥ نَظْمُ مَنْثورٍ صِناعيٌّ ، نشأ بإيجاد العروض المَفْقود ، قَصْدًا .
٦ نَثْرُ مَنْظومٍ صِناعيٌّ ، نشأ بإِفْقاد العروض المَوْجود ، قَصْدًا .

أما النوعان الأولان فإن الكلام يَتَولَّدُ بينهما بوُجود العروض أو فُقوده : تَحْديدًا ، وتَرْتيبًا ، وتَهْذيبًا ؛ فإذا تشارك العروض واللغة ، في اختيار عناصر نص المنظوم وإبدال بعضها من بعض وُصولًا إلى تَحْديد العنصر المناسب ، وفي تقديم بعضها وتأخير بعضها وُصولًا إلى تَرْتيب الوضع المناسب ، وفي إضافة بعضها وحذف بعضها وُصولًا إلى تَهْذيب المقدار المناسب – فإن اللغة تنفرد بنفسها في تَحْديد عناصر نص المنثور ، وفي تَرْتيبها ، وفي تَهْذيبها .

وأما النوع الثالث ، فإن كلام النوع الثاني ، يَتَحَوَّل إليه عَفْوًا ، بإيجاد العروض : تَحْديدًا كذلك ، وتَرْتيبًا ، وتَهْذيبًا ؛ فإن النّاظم المُثقَّف ، يكون في شأن قريب من شأن ذلك المنثور الطبيعي ، فيخطر له من ذخيرته الثقافية ؛ فيستحسن أن يستفيد منه في نَظْمه الطبيعي ، فيَنْتَظِم فيه انْتِظامًا طبيعيا .

وأما النوع الرابع ، فإن كلام النوع الأول ، يَتَحَوَّل إليه عَفْوًا ، بإفقاد العروض : تَحْديدًا كذلك ، وتَرْتيبًا ، وتَهْذيبًا ؛ فإن النّاثر المُثقَّف ، يكون في شأن قريب من شأن ذلك المنظوم الطبيعي ، فيخطر له من ذخيرته الثقافية ؛ فيستحسن أن يستفيد منه في نَثْره الطبيعي ، فيَنْتَثِر فيه انْتِثارًا طبيعيا .

وأما النوع الخامس ، فإن كلام النوع الثاني ، يُحَوَّل إليه قَصْدًا ، بإيجاد العروض : تَحْديدًا كذلك ، وتَرْتيبًا ، وتَهْذيبًا ؛ فإن النّاظم المُتَكَلِّف ، لا يكون في شأن غير شأن ذلك المنثور الطبيعي ، بل ينقطع لنَظْمه نَظْمًا صناعيا .

وأما النوع السادس ، فإن كلام النوع الأول ، يُحَوَّل إليه قَصْدًا ، بإفقاد العروض : تَحْديدًا كذلك ، وتَرْتيبًا ، وتَهْذيبًا ؛ فإن النّاثر المُتَكَلِّف ، لا يكون في شأن غير شأن ذلك المنظوم الطبيعي ، بل ينقطع لنَثْره نَثْرًا صناعيا .

مَظانُّ اكْتشافِ خَصائصِ التّفْكيرِ الْعَروضيِّ اللُّغَويِّ

[٢] ربما اطمأن بعض الباحثين ، إلى ما ينكشف له من خـصائص التفكيـر العروضي اللغوي ، في نصوص المنظوم أو المنثور ، بتأملِ أعمال التحديد والترتيب والتهذيب السابقة . ولكنني أرتاب في ذلك الاطمئنان الذي يَرْضى بـالظَّنِّ ، وسـبيل اليقين أمامه في نصوص نظم المنثور ونثر المنظـوم ، حيـث تتقابـل الخـصائص المتناقضة ، في أداء رسائل مُتَّحِدَة ، بعبارات مُتَوارِدة ؛ فيتّضِح بعضها ببعض !

وإذا جاز لبعض الباحثين ، أن يرتاب في نصوصِ نظمِ المنثور ونثر المنظوم الصناعيَّيْنِ (النوعين الخامس والسادس) ، التي تزحم عليه الأفق بكتبهـا الخاصـة والعامة ؛ فيزهد في الاشتغال بتَحْويلها المُتَكَلَّف ، الذي يَقْتَـسِرُ الـذخيرة الثقافيـة ، ويُزَيِّفُ حركة التفكير الحر ؛ فيُضِلّ عن غاية البحـث - لـم يجـز لـه أن يرتـاب في نصوص نظم المنثور ونثر المنظوم الطبيعيَّيْنِ (النـوعين الثالـث والرابـع) ، الشاردة [1] ؛ فيعرض عن دراسة تَحَوُّلها العَفْوي ، الذي تَرْفِدُه الذخيرةُ الثقافية ، ويَصِفُ حركةَ التفكير الحر ؛ فيَهْدي إلى غاية البحث [2] !

نَماذِجُ نَظْمِ الْمَنْثورِ وَنَثْرِ الْمَنْظومِ الطَّبيعيَّيْنِ

[٣] من ثم أعرضت عن كتب نظم المنثور ونثـر المنظـوم الـصناعيين ، وأقبلت أفتش المكتبة العربية [3] ، حتى عثرت لنظم المنثور الطبيعـي ، علـى تـسعة

---

١ إن نصوص نظم المنثور ونثر المنظوم الطبيعيين ، إنما وقعت شواهدَ في كتب العلم ، كالعمدة لابن رشيق ٤٦٣هـ ، والبديع لابن منقذ ٥٨٤هـ ، وتحرير التحبير لابن أبي الإصـبع ٦٥٤هـ ، وغيرها - أو عوارضَ في كتب الفن ، كربيع الأبرار للزمخـشري ٥٣٨هـ ، والمـستطرف للأبشيهي ٨٥٢هـ ، وأنوار الربيع لابن أم معصوم ١١١٩هـ ، وكدواوين الشعراء والكتاب على التاريخ . أما نصوص نظم المنثور ونثر المنظوم الصناعيين ، فقد وقعت شواهد في كتب العلـم نفسها ، ثم انفردت بكتب علمية وفنية ، كنثر المنظوم للآمدي ٣٧٠هـ ، ونثر النظم وحل العقد للثعالبي ٤٢٩هـ ، والإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثـور للعميـدي ٤٣٣هـ ، والوشي المرقوم في حل المنظوم لابن الأثير ٦٣٧هـ ، وكدواوين نظم المتون على التاريخ .

٢ ولذلك لم يُؤاخَذ في السَّرِقات ، بنظم المنثور ونثر المنظوم الطبيعيـين ، راجـع ابـن رشـيق : ٢٩٤/٢، وابن أبي الإصبع : ٤٤١ .

٣ انتفعت في هذا المرحلة ، بالمكتبات الرقمية ذوات محركات البحث التي أطلعتني علـى مكنـون عشرات الكتب الكبار ، من مثل المكتبة الشاملة ، وموسوعة الشعر العربي - ثـم لَمّـا تحـددت المواد راجعتها في كتبها الورقية .

وعشرين نموذجا مزدوجا ، كل نموذج طرفان : نصٌ منثورٍ سابقٌ ونصٌ نظمٍ لاحقٌ – ولنثر المنظوم الطبيعي ، على ثمانية عشر نموذجا مزدوجا ، كل نموذج طرفان كذلك : نصٌ منظومٍ سابقٌ ونصٌ نثرٍ لاحقٌ . ثم ردَّدْتُ بينها النظر ، حريصا على صفة الطبيعيَّة السائغة ، وشَرْطِ المادَّتَيْنِ المُتَوازِنَتَيْنِ ، حتى صفَتْ لي عشرة نماذج مزدوجة ، أوردها فيما يأتي مرتبةً على حسب تواريخ حُدوث لَواحِقِها [1] ، غيرَ مُرقَّمَة ولا مُفصَّلَة [2] :

- النموذج الأول من نظم المنثور [3] :
- إنِّي قَدْ نَظَرْتُ في سِنِّي فَإذا أنا ابْنُ ثَلاثٍ وَخَمْسينَ سَنَةً وَأنا وَأنْتَ لِدَةُ عامٍ وَإنَّ امْرَأً قَدْ سارَ إلى مَنْهَلٍ خَمْسينَ سَنَةً لَقَريبٌ أنْ يَرِدَه
- إذا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذي أنْتَ فيهِم وَخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فَأنْتَ غَريب
وَإنَّ امْرَأً قَدْ سارَ خَمْسينَ حِجَّةً إلى مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِه لَقَريب
- النموذج الثاني من نظم المنثور [4] :
- أعْطِ مِنَ الدُّنْيا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَإنَّ ذلِكَ لا يَنْقُصُكَ مِنْها شَيْئًا وَأعْطِ مِنْها وَهِيَ مُدْبِرَةٌ فَإنَّ مَنْعَكَ لا يُبْقي عَلَيْكَ مِنْها شَيْئًا
- لا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُها التَّبْذيرُ وَالسَّرَف
فَإنْ تَوَلَّتْ فَأحْرى أنْ تَجودَ بِها فَلَيْسَ تَبْقى وَلكِنْ شُكْرُها خَلَف
- النموذج الثالث من نظم المنثور [5] :
- مَنْ رَضِيَ مِنْ صِلَةِ الْإخْوانِ بِلا شَيْءٍ فَلْيُواخِ أهْلَ الْقُبورِ

---

١ تبين لي أن تاريخ الطرف اللاحق (نص النظم ونص النثر) ، أهم من تاريخ الطرف السابق (نص المنثور ونص المنظوم) – وإن كان كلاهما في نفسه مهما – فإن البحث إنما هو عن وجود الطرف اللاحق ، بعد الطرف السابق .

٢ أوازن بين أطراف هذه النماذج فيما بعد ، على منهج جديد من التَّقسيم والجَدْولة ، يعوقه التَّرقيم والتَّفصيل .

٣ الأصفهاني : ٧٦٨٩/٢٢ ، والمنثور للحجاج الثقفي ، ونظمه للتيمي القريب من ١٩٣هـ .

٤ الأبشيهي : ١٦٣ ، والمنثور ليحيى البرمكي ، ونظمه للخثعمي القريب من ٢٨٤هـ .

٥ ابن عساكر: ٦٩/١، والمنثور لميمون بن مهران ، ونظمه لابن بطة القريب من ٣٥٣هـ.

- إذا كُنتَ تَرضى مِنْ أخٍ ذي مَوَدَّةٍ إخاءً بِلا شَيْءٍ فَواخِ الْمَقابِرا
فَلا خَيْرُها يُرْجى وَلَا الشَّرُّ يُتَّقى وَلا حاسِدٌ مِنْها يَظَلُّ مُحاذِرا
- النموذج الرابع من نثر المنظوم [1] :
- وَعُدْتَ إلى حَلَبٍ ظافِرًا كَعَوْدِ الْحَلْيِ إلَى الْعاطِل
- وَعادَ مَوْلانا إلى مُسْتَقَرِّ عِزِّه عَوْدَ الْحَلْيِ إلَى الْعاطِلِ وَالْغَيْثِ إلَى الرَّوْضِ الْماحِلِ
- النموذج الخامس من نظم المنثور [2] :
- قيلَ لِأَعْرابيٍّ ما أعْدَدْتَ لِلْبَرْدِ قالَ طولَ الرِّعْدَة
- قيلَ ما أعْدَدْتَ لِلْبَرْدِ فَقَدْ جاءَ بِشِدَّهْ
قُلْتُ دُرّاعَةَ عُرْيٍ تَحْتَها جُبَّةُ رِعْدَهْ
- النموذج السادس من نثر المنظوم [3] :
- مِنَ ايِّ الثَّنايا طالَعَتْنا النَّوائِب وَأيُّ حِمًى مِنّا رَعَتْهُ الْمَصائِب
- مِنْ أيِّ الثَّنايا طَلَعَتِ النَّوائِبُ وَأيُّ حِمًى رَتَعَتْ فيهِ الْمَصائِبُ
- النموذج السابع من نثر المنظوم [4] :
- ألا إنَّما الدُّنْيا غَضارَةُ أيْكَةٍ إذَا اخْضَرَّ مِنْها جانِبٌ جَفَّ جانِب
- وَيَعْلَمُ أنَّ الزَّمَنَ إنْ سَرَّ حينًا فَهَمُّه ناصِبٌ وَالدُّنْيا إذَا اخْضَرَّ مِنْها جانِبٌ جَفَّ جانِبٌ
- النموذج الثامن من نظم المنثور [5] :
- إذا كَتَبْتَ كِتابًا فَالْحَنْ فيهِ فَإنَّ الصَّوابَ حُرْفَةٌ وَالْخَطَأَ نُجْحٌ
- إنْ كُنْتَ يَوْمًا كاتِبًا رُقْعَةً تَبْغي بِها نُجْحَ وُصولِ الطَّلَبْ

---

١ البديعي : ٢٧٥ ، والمنظوم للمتنبي ، ونثره للصابئ ٣٨٤هـ .

٢ الزمخشري : ١٣٦/١ ، والمنثور لمجهول ، ونظمه لابن سكرة الهاشمي ٣٨٥هـ ، وفيه " شِدَّةْ " و" رِعْدَةْ " ، بالتاء المعجمة ، ومقتضى القافية الهاء المهملة .

٣ ابن معصوم : ٨١٦ ، والمنظوم للشريف الرضي ، ونثره لابن الدباغ الوزير القريب من ٥٢٩هـ .

٤ السابق نفسه ، والمنظوم لابن عبد ربه ، ونثره لابن عطية القاضي القريب من ٥٣٣هـ .

٥ الوطواط : ١٣٠ ، والمنثور للمُثَنّى أبي أبي عُبَيْدَةَ ، ونظمه للكناني القاضي ٨٠٢هـ .

إيّاكَ أنْ تُغربَ ألفاظَها فتَكْتَسي حُرْقَةَ أهْلِ الْأدَبْ

- النموذج التاسع من نثر المنظوم [1] :

– إذا ساءَ فعلُ الْمَرْءِ ساءَتْ ظُنونُه وَصَدَّقَ ما يَعْتادُه مِنْ تَوَهُّم

– فإنّه لَمّا قَبُحَتْ فَعَلاتُه وَحَنْظَلَتْ نَخَلاتُه لَمْ يَزَلْ سوءُ الظَّنّ يَقْتادُه وَيُصَدِّقُ تَوَهُّمَهُ الَّذي يَعْتادُه

- النموذج العاشر من نثر المنظوم [2] :

– كَأنّني عانَقْتُ رَيْحانَةً تَنَفَّسَتْ في لَيْلِهَا الْبارِد

– فَلِلّه كِتابُه مِنْ رَيْحانَةٍ تَنَفَّسَتْ في لَيْلِهَا الْبارِدِ وَعَطَّرَتْ مَعاطِسَ الْأسْماعِ بِنَشْرِهَا الْوارِدِ

تَعْليقاتٌ عَلَى النَّماذِجِ الْمُخْتارَةِ

[٤] ولقد انقسمت تلك النماذج العشرة المزدوجة ، على نظم المنثور ونثر المنظوم الطبيعيَّيْنِ ، انقساما عادلا (خَمْسَتَيْنِ) ، يتيح لي أن أَعُمَّها بالتعليقات الآتية :

١ إن انبساط تلك النماذج العشرة المختارة من غير تعمدِ شيءٍ إلا صفة الطبيعية وحدها ، على أكثر من تسعة قرون (١٩٣-١١١٩هـ) ، وهي مدة طويلة – لَيُغري بتوقع وجود أمثالها قبل هذه المدة وبعدها ، ويؤكد أن نظم المنثور ونثر المنظوم ، ظاهرة طبيعية في عمل الأدباء المُثَقَّفين المُتَوَقِّدين ، من باب تداخل الأنواع الأدبية ، الذي يَظَلُّ مِفْتاحَ الإِبْداعِ الذي لا يَصْدَأ .

٢ من معالم طبيعية نصوص نماذج نظم المنثور المختارة ، اتحاد الرسائل بين أطرافها ، على هذه الخمس الآتية بترتيبها :

- في طولِ الْعُمْرِ قُرْبُ الْمَوْتِ
- الْبَذْلُ على كُلِّ حالٍ أَمْلَكُ لِلدُّنْيا
- صُحْبَةُ الْمَوْتى خَيْرٌ مِنْ صَداقَةِ مَنْ لا أَثَرَ لَه

---

١ ابن معصوم : ٨١٦ ، والمنظوم للمتنبي ، ونثره لمغربي قريب من وفاة ابن أم معصوم ١١١٩هـ .

٢ السابق : ٨١٦-٨١٧ ، والمنظوم لابن المعتز ، ونثره لابن معصوم نفسه ١١١٩هـ .

- التَّسليمُ للشّدائدِ حيلَةُ الضَّعيف
- تَعَمُّدُ الخَطَأ عِنْدَ الطَّلَبِ أَحْظَى بالنّجاح

ومن معالم طبيعية نصوص نماذج نثر المنظوم المختارة ، اتحاد الرسائل كذلك بين أطرافها ، على هذه الخمس الآتية بترتيبها :

- عَوْدَةُ سيِّدٍ غائِبٍ
- فِقْدانُ عَزيزٍ
- تَقَلُّبُ الدُّنْيا
- سوءُ العاقِبَةِ مِنْ سوءِ الفِعْلِ
- مُتْعَةُ وِصالٍ

وإن رسائل نماذج نظم المنثور كلها ، أفكارٌ حِكْمِيَّةٌ – ورسائل نماذج نثر المنظوم إلا النموذج الرابع ، صُوَرٌ فنيَّةٌ ؛ فأما النموذج الرابع فقد كانت رسالته فكرة حكمية . وإن في ذلك لدلالة واضحة على أن لكل من المنظوم والمنثور ، ميزةً خاصةً ، يُصنَّفُ بها في ذخيرة الأديب العربي المثقف ، ويَحْضُرُ بها في أثناء عمله ؛ فميزةُ المنثور الحِكْمةُ ، وميزةُ المنظوم الصورةُ ؛ فإذا كان الأديب العربي المثقف سادِرًا في نظمه الطبيعي ، فإن الذي يحضره من المنثور وينتظم في ضمن نظمه انتظاما طبيعيا ، هو ذو المعنى الحكمي . وإذا كان سادِرًا في نثره الطبيعي ، فإن الذي يحضره من المنظوم وينتثر في ضمن نثره انتثارا طبيعيا ، هو ذو الصورة الفنية !

٣ اشتملت نصوص النثر من نماذج نثر المنظوم إلا النموذج السادس ، في أوائلها ، على أدوات ربط (عاطفة أو مُسْتَأْنِفة) ، ليس قبلها ما تعطف عليه ، أو تستأنف عنه – وفي حواشيها ، على ضمائر غيبة ، لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ (ليس قبلها ما تُحيل عليه) ؛ وكأنما عجز الراوي عن شَغْل فراغ ضمائر الغيبة المنصوص عليها في الحواشي ، فاستسلم لأدوات الربط في الأوائل وكان يستطيع حذفها ؛ وكأنه أراد أن يُنَبِّهَ على طبيعة التعبير في نثر المنظوم ، المبنية على ميزة المنظوم (الصورة) ، ولا ريب في أن خُلُوّ نصوص نظم المنثور من ذلك كله ، سيُنَبِّه على طبيعة التعبير

في نظم المنثور ، المبنية على ميزة المنثور (الحكمة) ؛ فنتوقع من غيرنا – أو نتحرى نحن حين نفعل – أن تكون نصوص نثر المنظوم ، عبارات منفصلة من سياقات لا تستغني عنها – وأن تكون نصوص نظم المنثور ، عبارات مستقلة مستغنية بنفسها .

٤ زاد متوسط طول النموذج من نظم المنثور (٣٤ كك [١]) ، على متوسط طول النموذج من نثر المنظوم (٢٣ كك) ، كما يستنبط من الجدول الآتي :

النماذج	كلم نظم المنثور الكتابية		كلم نثر المنظوم الكتابية	
	المنثور	نظمه	المنظوم	نثره
١	٢٦	٢٢		
٢	٢٢	٢٠		
٣	١٠	٢٣		
٤			٨	١٣
٥	٨	١٣		
٦			١٠	١٠
٧			١١	١٥
٨	١٠	١٨		
٩			١١	١٥
١٠			٧	١٣

من حيث احتاج التعبير عن المعنى الحكمي بعبارة مستقلة ، إلى عناصر لغوية أكثر مما احتاج التعبير عن الصورة الفنية بعبارة منفصلة . وفي خلال ذلك زاد متوسط طول النص اللاحق (النظم = ١٩ كك ، والنثر = ١٣ كك) ، على متوسط طول

---

١ " كك " أي كلمة كتابية ، وهي المحفوفة من قبلها ومن بعدها ببياض ، المعدودة بذلك في الحاسوب، كلمة واحدة ، مهما كان اعتبارها في التحليل اللغوي ؛ فإن إيقاع النطق يعدها كلمة واحدة، ثم يوافقه إيقاع العروض ، أو يخالفه .

النص السابق (المنثــور = ١٥ كـك ، والمنظــوم = ٩ كـك) ، مِقْـدارًا واحِـدًا (٤ كك) ؛ فتجلى بذلك انضباط حركة التَّحَوُّل ، منثورا كان الـنص المُتَحَـوِّل ، أو منظومًا – من بعد أن كانت البنية اللاحقة أكثر ارتخاء من البنية السابقة .

٥ تَكَوَّنَ نص الشعر في كل نموذج من نماذج نظْمِ المنثور ، من بيتين اثنين – علـى حين تَكَوَّنَ في كل نموذج من نماذج نثر المنظوم ، من بيت واحد ، ولا ريبَ فـي أن الأمر موصول بتفاوتِ طولَيْهِما السابقِ في التعليقة الثالثة ذِكْرُه وتَفْسيرُه ، ولكنه لا يخلو من دلالة على أن سلطان البيت الواحد المشهور ، إنما هو على الرواية لا على القول – وأن الشاعر أعْرَفُ بقيمة القافية ، من الراوي ؛ فإن شَمْسَ القافية لا تَسْطَعُ من بيت واحد !

٦ على رَغْمِ تناقض حَرَكاتِ أبيات النماذج وتَرامي أزْمِنَتِهـا ، غلـب عليهـا وزنُ الطَّويل الوافي (المُثَمَّن) ، وقافيةُ الباء المضمومة ، كما يتضح بالجدول الآتي :

م	الوزن	القافية
١	طويـل وافٍ مقبـوض العـروض محذوف الضرب	باء مضمومة مردفـة بيـاء المـد موصولة بالواو
٢	بـسيط وافٍ مخبـون العـروض والضرب	فاء مضمومة مجـردة موصـولة بالواو
٣	طويـل وافٍ مقبـوض العـروض والضرب	راء مفتوحـة مؤسـسة موصـولة بالألف
٤	متقارب وافٍ محـذوف العـروض والضرب	لام مكسورة مؤسـسة موصـولة بالياء
٥	رمل مجزوءٌ صـحيح العـروض والضرب	دال مفتوحة مجردة موصولة بهـاء ساكنة
٦	طويـل وافٍ مقبـوض العـروض والضرب	باء مضمومة مؤسـسة موصـولة بالواو

٧	طويـــل وافٍ مقبـــوض العـــروض والضرب	باء مضمومة مؤســـسة موصـــولة بالواو
٨	ســـريع وافٍ مطـــوي العـــروض والضرب مكشوفهما	باء ساكنة مجردة
٩	طويـــل وافٍ مقبـــوض العـــروض والضرب	ميم مكسورة مجردة موصولة بالياء
١٠	ســـريع وافٍ مطـــوي العـــروض والضرب مكشوفهما	دال مكسورة مؤســـسة موصـــولة بالياء

أما غلبة الطَّويل الوافي ، فمن استمرار وثاقة العلاقة في ترتيب المقـــاطع ، بين مُركَّباته الوزنية (التفعلية والشطر والبيت) ، وبين المُركَّبات اللغويـــة (الكلمـــة والتعبير والجملة) . وأما غلبة الباء المضمومةِ ، فمن ذخيـــرة الجـــذور المعجميـــة المختومة بالباء ، ومن ذخيرة التراكيب النحوية المختومة بأحد ركني الجملة .

تَنْميطُ خَصائِصِ التَّفْكيرِ الْعَروضيِّ اللُّغَويِّ

[٥] وعلى رغم تلك التعلبقات العامة ، التي لم تستطع الملاحظة الأوليـــة أن تُهمِلَها – يحتاج البحث عن خصائص التفكير العروضي اللغوي ، بين نصوص نظـــم المنثور ونصوص نثر المنظوم الطبيعيين ، إلى نقد أعمال التَّحديد والتَّرتيب والتَّهذيب التي تَكوَّنَتْ بعَمَلِها هذه النصوصُ ؛ عسى أن تَتَجلَّى معالم حركـــةِ ذلـــك التفكيـــر ، الطبيعيةِ الحرةِ .

ولا ريب في أن تفكير الإنسان ، أشد أعماله الحيوية تَعقيدًا ؛ إذ تَتَراكَمُ فـــي الفكرة الواحدة من أفكاره التي لا تنقطع أبدا ، ملايينُ الأعمال : تَتَوازى ، وتَتَقابَـــل ، وتَتَقاطَع ، وتَتَداخَل ... ؛ فلا تقوم لوَصْفِ الفكرة الواحدة ، خَصيصَةٌ واحدةٌ ، مهمـــا كانت عميقةَ الدلالة على ذلك التَّعقيد .

ومن ثم رأيت أن أُنَمِّطَ خصائص التفكير العروضي اللغوي ، بين نـــصوص نظم المنثور ونصوص نثر المنظوم – على أَنماطٍ أَظْهَريَّةٍ ، أُسَمِّي النمط فيها بـــأَظْهَرِ الأعمال فيه على التفكير ، وهو ربما اشتمل مع هذا العمل الأَظْهر ، علـــى أعمـــال

أخرى أَخْفى – ولكن النَّمَط المُسَمّي ، عَلَمٌ على هذه الأعمال كلِّها أَظْهَرِها وأَخْفاها – فإذا تَظاهَرَتْ هذه الأنماطُ في استيعاب الباحث والمتلقي ، تَجَلَّتْ لهما تلك الخصائص.

النَّمَطُ الْأَوَّلُ سابِقِيٌّ

في هذا النَّمَطِ يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ سابِقَةٌ ، مُضافَةٌ كأنها العنوانَ الذي يَدَّعي به الأديبُ العملَ لنفسه من قبل أن يشرع فيه! إنه نمط من تَقْدير النَّفْس ، تَخَرَّجَ فيه نموذجان : واحد من نظم المنثور (١) ، وواحد من نثر المنظوم (٧) ، ولكن اختلفت بينهما وظيفتا السابقتين ، على النحو الآتي :

١ **وَظيفَةُ التَّأْسيسِ :**

[٦] في هذه الوظيفة تُعَبِّرُ السابقةُ في النص اللاحق ، عن معنى ليس من معاني النص السابق ، ولكنه يُؤَسِّس له ما ينبني عليه ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَيِ النموذج الأول (من نظم المنثور) ، في التعبير عن أنَّ في طولِ الْعُمُرِ قُرْبَ الْمَوْتِ – تميزت سبعة الأقسام التركيبية الآتية :

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
×	إنّي قَدْ نَظَرْتُ في سِنّي فَإذا أنا ابنُ ثَلاثٍ وَخَمْسينَ سَنَةً وَأنا وَأنْتَ لِدَةُ عامٍ	وَإنَّ امْرَأً قَدْ سارَ	إلى مَنْهَلٍ	خَمْسينَ سَنَةً	×	لَقَريبٌ أنْ يَرِدَه
إذا ذَهَبَ القَرْنُ الّذي أنْتَ فيهِم وَخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فَأنْتَ غَريب	×	وَإنَّ امْرَأً قَدْ سارَ	×	خَمْسينَ حِجَّةً	إلى مَنْهَلٍ	مِنْ وِرْدِه لَقَريب

وتَجَلّى أن الأقسام الخمسة الأخيرة ، هي أهم أقسام نص المنثور للناظم عند الراوي ؛ فقد استحسن معناها الحكمي الداعي إلى تَوَقُّع وُصول الوارِدِ المُلِحّ ، وقَبِلَ بِنْيَتَها النحوية الجملة الاسمية المنسوخة بحرف التوكيد " إنَّ " المعطوفة بالواو على ما قبلها ، فأبقى عليها ، ثم أقبل ينظمها ببيتِ طَويليٍّ الوزن الوافي المقبوض العروض المحذوف الضرب ، وبائيِّ القافية المضمومة المردفة بياء المد الموصولة بالواو :

أما القسم الثالث الذي كان صَدْرَ جملة اسمية معطوفة بالواو مُتَكَوِّنًا من حرف النسخ والتوكيد " إنَّ " واسمه النكرة " امْرَأً " وصدر نعته الجملة الفعلية المقترنة بقد المتكونة من فعل السير الماضي وفاعله ضمير " امْرَأً " الغائب " قَدْ سارَ"، فقد أبقاه كما هو تماما " وَإِنَّ امْرَأً قَدْ سارَ = دَدَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَنْ دَنْ دَ "[1] .

وأما القسم الرابع الذي كان جارًّا غائيًّا متعلقا بفعل القسم الثالث " إِلى " ومجرورًا نكرةً " مَنْهَلٍ " ، فقد أبقاه كما هو ، ولكنه أَخَّرَه إلى القسم السادس " إِلى مَنْهَلٍ = دَدَنْ دَنْ دَدَنْ " ؛ فتكافأ فَراغُ القسم الرابع من نص النظم وفَراغُ القسم السادس من نص المنثور ، وإن كان تقديمه في نص المنثور ، أعْوَنَ على التأثير بمفاجأة ذِكْر الخمسين سنة فيما بعد ، من تقديم الخمسين سنة ، الذي يفقد المفاجأة ، مهما كان المَنْهَلُ الذي يُسار إليه ! وأما القسم الخامس الذي كان ظرف زمان متعلقا بفعل القسم الثالث " خَمْسينَ " وتمييزا " سَنَةً " ، فقد أبقاه كما هو في قسمه ، ولكنه حَوَّلَ تمييزه إلى مادة أخرى من مجاله المعنوي " خَمْسينَ حِجَّةً = دَنْ دَنْ دَدَنْ دَدَنْ " ! وأما القسم السابع الذي كان خبر " إنَّ " اسما مشتقا مقترنا بلام التوكيد " لَقَريبٌ " وفاعله المصدر المؤول " أنْ يَرِدَه " ، فقد أبقاه كما هو ، ولكنه صَرَّحَ بالمصدر وجَرَّه بجارٍّ غائيٍّ وقَدَّمَه على الخبر فاستتر فيه ضميرُ " امْرَأً " فاعلًا " مِنْ وِرْدِه لَقَريبُ = دَنْ دَنْ دَدَنْ دَدَدَنْ دَنْ " ، ولا يخفى أن حذف مثل هذا الجار معروف قبل مثل ذلك المصدر المؤول[2] ، فإذا قُدِّرَ في القسم السابع من نص المنثور ، كان فاعل الخبر المشتق هو ضمير " امْرَأً " الغائب ، وازداد اتفاق القسمين السابعَيْنِ !

ثم لَفَتَه خَبَرُ ما يُقْبِلُ عليه المرء الوارد المُلِحّ ، إلى خَبَرِ ما انصرف عنه (ضِدِّه) ؛ فأضاف به القسم الأول – فإن ذلك الإلحاح نفسه ، يبعده عن المصدر (الطفولة) ، بمقدار ما يقربه من المنهل المورود (الموت) – وأغرته " قَريب " ، التي أخذها من نص المنثور فجعلها كلمة قافية في نص النظم ، بكلمة " غَريب "

---

١ بهذه الدَّنْدَنَةِ (مقابلة المتحرك بِدالٍ والساكن بِنونٍ) ، يَتَجَرَّدُ إيقاعُ العبارة ، لِتأخذ بعدئذ مكانَها من البيت .

٢ ابن هشام : ١/١٦٦

(ضِدّها التي تحتمل هنا معنى الاختلاف بمثل ما تحتمل معنى البُعْد) ؛ فنصَبَها كلمة قافيةٍ لبيت آخر ، يُؤَسِّسُ به أساس المعنى الحِكْميّ القادم ، ويُغْلِقُ دائرته من أولها ، بجملة شرطية من أداة اسمية ظرفية مستقبلية وجملة شرط فعلية من فعل الذهاب الماضي اللازم وفاعل معرف بأل منعوت باسم موصول صلته جملة اسمية مبتدؤها ضمير مخاطب وخبرها شبه جملة حرفي وجملةٍ فعلية ماضوية من فعل التّخْليف المبني للمجهول ونائب فاعل ضمير مخاطب وجار متعلق بالفعل ومجرور نكرة معطوفةٍ بالواو على جملة الشرط وجملةِ جَوابٍ اسمية مقترنة بفاء الربط مبتدؤها ضمير مخاطب وخبرها نكرة " إذا ذَهَبَ القَرْنُ الذي أنْتَ فيهِم وَخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فَأَنْتَ غَريب = تَدَنْ دَ تَدَنْ دَنْ دَنْ تَدَنْ دَنْ تَدَنْ تَدَنْ تَدَنْ دَنْ تَدَنْ دَنْ دَنْ تَدَنْ دَ تَدَنْ دَنْ "، وحذف القسم الثاني من نص المنثور كله بثلاث جمله الاسمية المتعاطفة المبنية كلها على ضمير المتكلم ، في مخافة واقعه الفاجع " إنّي قَدْ نَظَرْتُ في سِنّي فَإذا أنَا ابْنُ ثَلاثٍ وَخَمْسينَ سَنَةً وَأنَا وَأنْتَ لِدَةُ عامٍ " ، على أنه زيادة لا تلائم تحذير مستقبل سيفجع ؛ وكأن تحذير العواقب على جهة التواصي ، مقدم في الحكمة على بَثِّ المشاعر على جهة التعاطف والتراحم - على رغم أن القسم المحذوف من نص المنثور ، هو الذي حدد للناظم السن المخوفة في الأقسام اللاحقة ، وأوحى له في القسم الأول ، بمعنى المدة الجديدة أن تَغْرُبَ بالشيخ عن الطفل ، وهو اختلال لا علاج له ، ولا سيما أنْ لم يرد في معنى القَرْن (المُتَجايِلينَ) من الناس ، أنه يكون خمسين سنة !

٢ وَظيفَةُ التَّمْهيدِ :

[٧] أما في هذه الوظيفة فتُعَبِّرُ السابقة في النص اللاحق ، عن معنى من معاني النص السابق ، وتمهد له به ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَي النموذج السابع (من نثر المنظوم) ، في التعبير عن تَقَلُّبِ الدُّنْيا - تميزت خمسة الأقسام التركيبية الآتية :

٥	٤	٣	٢	١
إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جانِبٌ جَفَّ جانِب	غَضارَةَ أَيْكَة	ألا إنَّمَا الدُّنيا	×	×
إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جانِبٌ جَفَّ جانِبٌ	×	الدُّنيا	وَ	ويَعلَمُ أنَّ الزَّمَنَ إنْ سَرَّ حيناً فَهَمُّه ناصِبٌ

وتَجلَّى أن الخامس منها هو أهم أقسام المنظوم للناثر عند الراوي ؛ فقد استحسن صورته الفنية (ارتباط الضِّدَّيْنِ بالاخْضِرارِ والْجَفافِ) ، التي تفضح حقيقة الدنيا – وقَبِلَ بِنْيَتَه النحوية (الجملة الشرطية بالأداة " إذا " الظرفية المستقبلية) ، التي تُمَثِّل التَّضادَّ بتَوازُنِ تركيبَيْ جُمْلَتَيْ شرطها " اخْضَرَّ مِنْها جانِبٌ " وجوابها " جَفَّ جانِب " الفعليتين الماضويتين ، لولا حذف شبه الجملة الحرفي الحال من فاعل جملة الجواب النكرة استغناء بمثله في جملة الشرط ، لاستحالة حذفهما كليهما جميعا ، خشية انفكاك رباط الجملة الشرطية بما قبلها – فأبقى القسم كما هو في نفسه ، وإن وقف على آخره المتحرك بتسكينه ، بعدما كان الوقف على آخره المتحرك بإشباع حركته .

ثم أضاف القسم الأول ، ومَهَّدَ في آخره لصورة القسم الخامس الفنية ، بصورةٍ مثلها (ارتباط المُتَنافِرَيْنِ السرورِ والنَّصَبِ) ، بَناها على مثل بِنْيَتِها النحوية الجملة الشرطية " إنْ سَرَّ حيناً فَهَمُّه ناصِبٌ " – وإنْ بحرف شرط تقليلي وجملة جواب اسمية مقترنة بفاء الربط أراد بهما تمييز الزمن من الدنيا بجواز أن يُواتِيَ وهو مُتَثاقِلٌ كأنه في نَصَبٍ من نفسه ، لا كالدنيا الخَدّاعة الشائبة الصلاحَ نفسَه بالفَساد – وعلى مثل بنيتها الصوتية المشتملة على موازنة مُضَعَّفَيْنِ " اخْضَرَّ ، جَفَّ " بمُضَعَّفَيْنِ " سَرَّ ، هَمُّه " واسمِ فاعلٍ ثلاثي " جانِبٌ " بمثله " ناصِبٌ " – ثم ركَّبَ هذه الجملة الشرطية في القسم الأول ، بحيث تكون خبر حرف النسخ والمَصْدريَّة " أنَّ " واسمه معرف بأل " الزَّمَنَ " ، ويكون من الناسخ ومَعْمولَيْه ، مصدرٌ مُؤَوَّل مفعول به لفعل العلم المضارع " يَعلَمُ " ، يسد مسد مفعوليه ، وفاعله ضمير غائبٍ مستترٌ فيه ، لم

يَجْرِ له ذِكْرٌ ، يحفظ على النص معنى انفصاله من سياقه ، مثلما يحفظه اقتران هـذا القسم الأول ، بواو عطف لا معطوف عليه قبلها !

ثم أضاف بالقسم الثاني واو عطف ، يجترئ بها على نص المنظـوم ؛ فـإذا نَثَرَه عطفه على ما قبلها ؛ فوجد القسم الثالث صدر جملة اسمية من أداة استفتاح " ألا " فأداة قصر " إنَّما " فمبتدأ مقصور " الدُّنيا " ؛ فاكتفى بالمبتدأ ، وعطفه بالواو علـى اسم " أنَّ " في القسم الأول – ثم وجد القسم الرابع خبر المبتدأ مركبا إضافيا " غضارةُ أيْكَةٍ " لا نظير له في القسم الأول ، فحذفه بمرة – ثم وجد الجملة الشرطية بالقسم الخامس ، نعت المضاف إليه في الخبر الذي حذفه ؛ فعطفها بالواو نفسها على خبر " أنَّ " في القسم الأول نفسه ؛ فعطف بعاطفٍ واحدٍ على مَعْمولَيْ عاملٍ واحدٍ ، شَبَيهَيْنِ مُجَهَّزَيْنِ ، لِيَتَيَسَّرَ أولًا إدراك موازنة الزمن وأحواله بالدنيا وأحوالها ، ويتكون آخـرًا من " أنَّ " وهذه العناصر المتعاطفة كلها على كثرتها ، مصدرٌ واحد مؤول ، مفعـولٌ به لفعل العلم المضارع الناسخ المتقدم ، فيَعُمُّها يقينٌ واحد !

النَّمَطُ الثَّاني عارِضيٌّ

في هذَا النَّمَطِ يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ ، فـإذا الـنصُّ اللاحـقُ كُلُّـه عارِضَةٌ [1] ، كأنها صورةٌ صَوَّرَ بها الأديبُ النص ، وصَـوَّرَ نفـسه فـي ظلالـه ! إنه نمط من تَنْكير النَّفْس ، تَخَرَّجَتْ فيه ثلاثة نماذج : اثنان من نظـم المنثـور (٢ ، ٨)، وواحد من نثر المنظوم (٦) ، ولكن اختلفت بينها وظائف العَوارِض ، علـى النحو الآتي :

١ وَظيفَةُ التَّقْريبِ :

[٨] في هذه الوظيفة تُصَوِّرُ العارِضَةُ النصَّ السابق بالنص اللاحق ، ولكنهـا تَتَصَرَّفُ في صورته ، وكأنها تُقَرِّبُه ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَي النموذج الثـاني (من نظم المنثور) ، في التعبير عن أن البَذْلَ على كلِّ حالٍ أَمْلَكُ للـدنيا – تميـزت سبعة الأقسام التركيبية الآتية :

---

١ راجع ابن منظور : ع ر ض ؛ فلا يخلو اختيار الكلمة من نظر إلى معنى الحافظة من معانيها .

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
أعطِ	مِـنَ الدُّنيا	وَهِيَ مُقْبِلَةٌ	فَإِنَّ ذلكَ لا يَنْقُصُكَ مِنها شيْئًا	وَ	أعطِ مِنهـا وَهِـيَ مُدْبِرَةٌ	فـإِنَّ مَنْعَـكَ لا يُبْقي عَلَيْكَ مِنهـا شَيْئًا
لا تَبْخَلَنَّ	بِدُنْيا	وَهْيَ مُقْبِلَةٌ	فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّبْذيرُ وَالسَّرَفُ	فَ	إِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أَنْ تَجودَ بِها	فَلَيْسَ تَبْقى وَلَكِنْ شُكْرُها خَلَفُ

وتجلى أن نص المنثور كله مهم كذلك للناظم عند الراوي ؛ إذ قد غلب عليه مَعْنًى حِكْمِيٌّ مركب من جزأين (العطاء في اليسر والعطاء في العسر) ، عَـرَفَ تَكامُلَهما ، وقَبِلَ بِنْيَتَه النحوية الكلية (نَصيحة فعِلَّتها فنَصيحة فعِلَّتها) ، ثم أقبل ينظم أقسامه ببيتين بَسيطيَّيِ الوزن الوافي المخبون العروض والضرب، وفائيَّيِ القافية المضمومة المجردة الموصولة بالواو :

فحَوَّل الأمر بصيغة فعل الأمر في القسم الأول " أعْطِ " ، إلى نهي بصيغة فعل مضارع مجزوم بلا الناهية " لا تَبْخَلَنَّ = دَنْ دَنْ دَدَنْ دَ " . ربما قيل إن النهي أمْرٌ بالكَفِّ ، ولكن الأمر بالخلق الحميد (الإعطاء) ، أَنْفَعُ في بناء الأخلاق من النهي عن الخلق الذميم (البخل) ؛ ولا سيما أن المأمور بإعطائه مطلق ، ولأمرٍ ما أكَّدَ الناظم نَهْيَه ، وكأنه يخاف أن تَسْتَقِلَّ مَنْزِلَةُ نظمه عن منزلة المنثور !

ثم حَوَّل الجارَّ التَّبْعيضيَّ والمجرور المعرَّف بأل " مِنَ الدُّنْيا " في القسم الثاني ، إلى جارٍّ تَعْدَويٍّ ومجرورٍ نكرة " بِدُنْيا = دَدَنْ دَنْ " . ربما كان في تنكير " دُنْيا " ، تَحْقيرٌ يلائم النهي عن البخل بها كلها ، من بعد أن كان في تعريفها تَعْظيمٌ يلائم الأمر ببذل بعضها ؛ فكأن حرف التعدية والنكرة كافآ حرف التبعيض والمعرفة، غير أن تعظيم الدنيا وإطلاق المأمور بإعطائه منها ، يصرف الفهم إلى تعلق الكرام دائما ببذل أطيب ما يملكون ، وهو مَعْنًى جَليلٌ !

ثم اكتفى من القسم الثالث " وَهِيَ مُقْبِلَةٌ " ، بتسكين هاء ضمير " دُنْيا " الغائبة " وَهْيَ مُقْبِلَةٌ = دَنْ دَدَنْ دَدَنْ " ، وغفل عن أنه بعد " دُنْيا " النكرة ، نعت – وإن اقترنت الجملة فيه بالواو – دالٌّ على أن الإقبال من صفاتها المستمرة ، لا من أحوالها المنتقلة ، على حين كان في نص المنثور ، حالا من " الدُّنْيا " المعرفة ؛ فكأنما دعا

الناظم إلى الإعطاء مما لا ينفد ، من بعد أن كانت الدعوة في نص المنثــور ، إلــى الإعطاء مما ينفد ، وهذه الدعوة أكرم من تلك !

ثم حَوَّلَ الجملة الاسمية المنسوخة بـ" إنَّ " المقترنة بفاء الاعتــراض بــين جملتي الأمر المتعاطفتين في القسم الرابع واسمها اسم إشارة إلى الإعطاء المفهوم مما سبق " ذلِكَ " وخبرها جملة فعلية منفية من فعل النقص المضارع المتعــدي وضـــميرِ اسم الإشارة الغائب الفاعل المستتر فيه وضميرِ مخاطبٍ متصل مفعول بـــه أول " لا يَنقُصُكَ " وجار متعلق به ومجرورٍ ضمير " الدُّنيا " الغائبة " مِنْها " واسمِ نكرةٍ مفعول به ثان " شَيْئًا " – إلى منسوخة بـــ" لَيْسَ " مقترنة بفاء الاستئناف عن جملـــة النهـــي السابقة واسمها ضمير شأن وخبرها جملة فعلية مثبتة من فعــل الـــنقص المـــضارع المتعدي نفسه ومفعول به واحد ضمير " دُنْيا " الغائبة المتصل وفاعل مصدر معـــرف بأل معطوف عليه مثله " فَلَيْسَ يَنقُصُهَا التَّبْذيرُ وَالـــسَّرَف : دَدَنْ نَدَنْ دَدَدَنْ دَنْ دَنْ نَدَنْ دَدَدَنْ " ؛ فعالَجَ بأسلوب ضمير الشأن ، استحالةَ توجيه معنى هذا القِسْم إلى غير مأمور بالإعطاء ، وكان مُختَصًّا للمخاطب !

ثم حَوَّلَ واو العطف في القسم الخامس ، إلى فاءٍ استأنفَ بها الجزء الآخـــر من الحكمة وكأنه نصيحة جديدة " فَـــ = دَ " ، وكان الجزآن من التقابل والتوازن فـــي نص المنثور ، بحيث لا يربطهما إلا واو العطف ؛ فقد اجتمع للقسم السادس من نص المنثور ما يوازن ثلاثة الأقسام الأولى جميعا ، بجملة فعل الإعطاء " أَعْـــطِ " الأمـــر وفاعله ضمير المخاطب المستتر فيه والجار التبعيضي المتعلق به والمجرور ضمير " الدُّنيا " الغائبة الذي يربط وجهي الإعطاء حتما " مِنْها " وجملة الحال مـــن ضـــمير " الدُّنيا " الغائبة " وَهِيَ مُدْبِرَةٌ "؛ فانعطف بالواو على تلك الأقسام انعطافا لازما . فأمـــا نص النظم فقد استحدث جملة شرطية بأداة الشرطِ التَّقْليليَّة وجملة شرطٍ فعلية من فعل التَّوَلّي الماضي المتصل بتاء تأنيث وضمير " دُنْيا " الغائبة الفاعل المستتر فيه وجملة جوابٍ اسميةٍ من خبرٍ مقدمٍ اسمِ تفضيل ومبتدأ مـــؤخر مـــصدر مـــؤول مـــن " أن " المصدرية وفعل الجود المضارع وضمير مخاطب فاعلٍ مستتر فيه وجارٌ متعلق بـــه ومجرورِ ضمير " دُنْيا " الغائبة " إنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أنْ تَجودَ بِهـــا = دَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَنْ

دَنْ دَنْ دَدَنْ دَدَدَنْ " ؛ فلم يأمره بالإعطاء كما لم يأمره به من قبل وهذا من عفو الملاءمة ، بل رتَّبَ على تَوَلّي الدنيا أفضليَّةَ الجود بما بقي منها ، وهو ترتيب شبيه بالنهي عن البخل !

ثم وجد الناظم القسم السابع من نص المنثور " فإنْ مَنْعَكَ لا يُبقي عليكَ منها شيئًا " ، مستأنفا بالفاء عن القسم السادس مَبْنيًا على مُضادَّةِ القسم الرابع بمثل بنيته إلا اسمَ الإشارة لأن ما قبله هنا أمر بالبذلِ والاستنكارُ إنَّما هو للمنع وإلا فِعْلَ النقص المضارع المتعدي إلى مفعولين فالمراد عكسه المتعدي إلى واحد ؛ فاحتاج إلى التوسل إلى المفعول الآخر بحرف الجر " عَلى " – فحَطَبَ في حبله ، واستأنف القسم السابع بالفاء عن القسم السادس مَبْنيًا كذلك على مُضادَّةِ القسم الرابع بمثل بنيته إلا فِعْلَ النقص المضارع المتعدي فالمراد عكسه اللازم وإلا فاعلَه المصدر المعرف بأل فالمراد ضمير " دُنْيا " الغائبة المستتر ، ثم عطف بالواو جملة اسمية مستدركة بـ " لكنْ " مبتدؤها مركب إضافي وخبرها نكرة ، تُلائمُ ببقاء المَجود به في بقاء شكره أفضليةَ الجود في جملة جواب شرط القسم السادس " فَلَيْسَ تَبْقى ولَكِنْ شُكْرُها خَلَف = دَدَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَنْ دَدَنْ دَدَدَنْ " .

وإذا وازنا بين عناصر طَرَفَي النموذج الثامن (من نظم المنثور) ، في التعبير عن أنَّ تَعَمُّدَ الْخَطَإِ عِندَ الطَّلَبِ أحظى بِالنَّجاحِ – تميزت ستة الأقسام التركيبية الآتية :

١	٢	٣	٤	٥	٦
إِذا	كَتَبْتَ كِتابًا	×	فَالْحَنْ فيهِ	فَإِنَّ الصَّوابَ حُرْقَةٌ	وَالْخَطَأَ نُجْحٌ
إِنْ	كُنْتَ يَوْمًا كاتِبًا رُقْعَةً	تَبْغي بِها نُجْحَ وُصولِ الطَّلَبْ	إِيّاكَ أَنْ تُعْرِبَ أَلْفاظَها	فَتَكْتَسي حُرْقَةَ أَهْلِ الْأَدَبْ	×

. وتَجَلّى أن نص المنثور كله مهم كذلك للناظم عند الراوي ؛ إذ غلب عليه معنًى واحدٌ من الحكمة السوداء ، الداعية إلى وجه من الفَساد سخريةً من خَيْبة الصَّلاح – مُرَكَّبٌ من أربعة عناصر : الكتابة ، واللحن ، والحُرْقة أي الحرمان ،

والنجاح – عَرَفَ تكاملها ، وقَبِلَ نِصفَ بِنْيَتِه النحوية الكلية (الجملة الشرطية) ، ثم أقبل ينظم أقسامه ببيتين سَرِيعِيَّي الوزن الوافي المَطْويِّ العروض والضرب المَكْشوفِهِما ، وبائيَّي القافية المُقَيَّدة المُجَرَّدَة :

فحَوَّل أداة الشرط الاسمية الظرفية المستقبلية " إذا " ، إلى أداة الشرط الحرفية التَّقْليليَّة " إنْ – دَنْ " ، رَغْبَةً عن تَوْسيط الكتابة في طلب الحقوق ، التي أَوْحى بشِياعها نصُّ المنثور – إلى تَوْسيط وسيلة أَنْفَعَ منها !

ثم حَوَّل القسم الثاني من جملة فعلية فعلها ماضي الكتابة وفاعلها ضمير مخاطب متصل ومفعولها نكرة " كَتَبْتَ كِتابًا " ، إلى جملة اسمية منسوخة بـ" كانَ " اسمها ضمير مخاطب وخبرها اسم فاعل الكتابة الناصب ظرفا قبله ومفعولا بعده " كُنْتَ يَوْمًا كاتِبًا رُقْعَةً – دَنْ دَدَنْ دَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَنْ " ؛ فتحول الزمن من ماض بسيط إلى ماض بعيد منقطع [1] ، ليقل احتمال وقوع الحدث ، كما قل باختلاف أداتي الشرط ، ويقل باختلاف اسمَي المكتوبين ؛ فـ" كِتابًا " أجل مكانة من " رُقْعَةً " ، التي لن تخلو من معنى التَّخَرُّق أو التَّقَطُّع ، مهما كانت النكتة البلاغية بين " رُقْعَة " ، في هذا القسم الثاني ، و" حُرْقَة " في القسم الخامس ، وأنَّ الحُرْقَةَ مِنَ الرُّقْعَةِ ، وأن من استعمل الرقعة استعمال الأدباء ، فلينتظر الحُرْقَةَ (الحِرْمان) التي يعيشون فيها !

ثم لانَ واعِيًا أو غافِلًا ، لطبيعة بيت الشعر العربي العمودي المُتَّسِقَة ؛ فإذا كانت عناصر تركيب نص المنثور أربعة ، وأراد أن ينظم بها بَيْتَيْن – نظم بكل بيت عنصرين ، وإذا تعلق من نص المنثور بالجملة الشرطية الوحيدة ، نظم بأحد البيتين شرطها وبالآخر جوابها ؛ فبقي عنصران ، فألْحَقَ بكلا الشرط والجواب أحدَهما ؛ فتقدم السادس ، فجاء ثالثًا " تَبْغي بِها نُجْحَ وُصولِ الطَّلَبْ – دَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَدَنْ دَنْ دَدَنْ " ، وبقي الخامس على موضعه !

ثم حَوَّل جملة جواب الشرط الفعلية المقترنة بفاء الجواب في القسم الرابع ، المتكونة من فعل الأمر باللحن وضمير المخاطب الفاعل المستتر فيه والجار المتعلق

---

[1] حسان : ٢٤٥ ؛ فبهذا فرق بين زمنيهما ، ولكن في غير الشرط ، ولن يختل بالشرط افتراقهما ، بل يستمر في المستقبل معكوسا .

به وضمير " كِتابًا " الغائب المجرور به " فَالْحَنْ فيهِ " - إلى ضمير مخاطب مُحَــذَّرٍ محذوف قبله فعل التحذير هو وفاء الجواب - وهــذا مــن خــصائص الــنظم دون المنثور - وفاعله ضمير المتكلم المستتر فيه بتقدير " أُحَذِّرُكَ " ومصدر مؤول مُحَــذَّرٍ منه " إيّاكَ أنْ تُعْرِبَ أَلْفاظَها = دَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَدَنْ دَنْ دَدَنْ " ؛ فتحول الأمر إلــى نهي . والأمر بالخلق الحميد أنفع في بناء الأخلاق كما سبق ، من النهي عن الخلــق الذميم ، ولكن المأمور به هنا خلق ذميم ، والمنهي عنه خلق حميد ، وهذا من احْمِرارِ السُّخْرِيَّةِ واسْوِدادِ الْحِكْمَةِ ، ولكن أطرف ما بينهما ، هو عموم اللحن فــي الأمــر ، وخصوص عدم الإعراب في النهي ؛ وكأن الإعراب هو علامة الصواب !

ثم حَوَّلَ القسم الخامس من جملة مستأنفة بالفاء السببية عن جواب الــشرط ، اسمية منسوخة بــ" إنَّ " المؤكدة اسمها معرف بأل الجنسية وخبرهــا نكــرة " فَــإِنَّ الصَّوابَ حُرْقَةٌ " - إلى مصدر مؤول من فعل الاكتساء المضارع المتعدي المنصوب بــ" أنْ " المضمرة المحذوف العلامة - وهذا من خصائص الــنظم دون المنثــور - وضمير المخاطب الفاعل المستتر فيه والمفعول به المضاف إلى مركــب إضــافي - معطوف بالفاء السببية على المصدر المؤول في القسم الرابع " فَتَكْتَسي حُرْقَــةَ أَهْــلِ الْأَدَبْ = دَدَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَدَنْ دَنْ دَدَنْ " ؛ فرد به عجز البيت الثاني نحويا (الإضــافة إلى المركب الإضافي) ، على عجز البيت الأول ، وشاكَلَ باكتساء الحُرْقة في هــذا القسم الخامس ، كتابة الرُّقْعة في القسم الثاني ؛ فإن المكتسي بالحُرْقة (الحِرْمــان) ، لا يملك إلا الرُّقَعَ والمُرَقَّعات ؛ فلا فرق بين ضَيْعَةِ ذي الحُرْقة فــي عجــز البيــت ، وضَيْعَةِ ذي الرُّقْعَةِ في صدره !

حتى إذا جاء القسم السادس بِاسْمَيْه (المعرف بأل فــالنكرة) ، المَعْطــوفَيْنِ بالواو على مَعْمولي " إنَّ " في القسم الخامس " وَالْخَطَأَ نُجْحٌ " - حذفه عنــه بمَــرَّةٍ ، استغناءً بما قدمه في القسم الثالث من جملة فعلية متكونة من فعل البُغــاءِ المــضارع المتعدي وضمير المخاطب الفاعل المستتر فيه والجارّ الاسْــتِعانيّ المتعلــق بالفعــل والمجرور ضمير " رُقْعَةً " الغائبة والمفعول به المضاف إلى مركب إضافي " تَبْغــي بِها نُجْحَ وُصولِ الطَّلَبْ = دَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَدَنْ دَنْ دَدَنْ " - نَعَتَ بها " رُقْعَةً " فــي

القسم الثاني ؛ فعلَّقَ هذا القسم الثالث بالماضي البعيد المنقطع الذي علق به قصد المخاطب إلى كتابة رقعة ، على حين تعلق نجاح الخطأ في نص المنثور بحُرقة الصواب ، لتعميم قَدَرٍ واحد ماض على الخطأ والصواب ، لا علاقة له بمكانة شخص الكاتب ولا مكانة شخص المكتوب له !

٢ وَظيفَةُ التَّوْثيقِ :

[٩] أما في هذه الوظيفة فتُصَوِّرُ العارِضَةُ النصَّ السابقَ بالنص اللاحق ، من غير أن تَتَصَرَّفَ في صورته ، وكأنها تُوَثِّقُه ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَي النموذج السادس (من نثر المنظوم) ، في التعبير عن فِقْدانِ عَزيزٍ – تميزت سبعة الأقسام التركيبية الآتية :

٧	٦	٥	٤	٣	٢	١
الْمَصائِب	رَعَتْهُ	مِنّا	وَأَيُّ حِمًى	النَّوائِب	طالَعَتْنا	مِنَ ايِّ الثَّنايا
الْمَصائِبُ	رَتَعَتْ فيه	×	وَأَيُّ حِمًى	النَّوائِبُ	طَلَعَتِ	مِنْ أَيِّ الثَّنايا

وتَجَلّى أن نص المنظوم كله مهم للناثر عند الراوي ؛ إذ قد غلبت عليه صورتان فنيتان واضحتان متعاقبتان (صورة الوصول ثم صورة الإصابة) ، تُمَثِّلان بالثَّنِيَّةِ التي لم تُحْرَسْ فَاقْتَحِمَتْ تَرَبُّصَ النائبة ، وبالحِمى الذي لم يُحْمَ فَانْتُهِكَ هجومَ المصيبة ، تَمْثيلا دقيقًا – واستحسنهما الناثر ، فقَبِلَ بِنْيَتَه النحويَّة (جملتين استفهاميتين استنكاريتين فعلية فاسمية متعاطفتين) ، ثم أقبل يَنْثُرُ أقسامه ؛ فإذا هو يَحْفَظُ عليها معالمها :

ففي القسم الأول اكتفى من تحقيق همزة " أيّ " ، وفتحها ، وتسكين نون " مِنْ " – بما يزيل اختصاص المنظوم بحذف همزتها بعد نقل حركتها إلى النون قبلها ! وفي القسمين الثالث والسابع اكتفى من تسكين حركتي آخر الكلمتين عند الوقف عليهما ، بما يزيل اختصاص المنظوم بإشباعهما عند الوقف عليهما ، في تقفية مثل هذا المطلع ، تَزْيينًا لآخِرِ صَدْرِه ، بتَشْبيهه بآخِرِ عَجُزِه ، وتَمْييزًا للمطلع من سائر أبيات قصيدته . وفي القسم الرابع اكتفى بالنقل حِرْصًا على " أيُّ " ، التي يجوز أن

تكون الكَماليّة ؛ فتدل على " حِمًى عَظِيمٌ مِنّا رَعَتْهُ الْمَصائِب " ، فضلا عما بينها عندئذ وبين " أيّ " في القسم الأول ، من طباق بديعي !

ولقد اجترأ الناثر قليلا في الأقسام الباقية ، على تجاوز ذلك الاكتفاء ؛ فجَرَّدَ الفعل المزيد في القسم الثاني " طالَعَتْنا " ، وحَذَفَ ضمير المتكلمين المتصل المفعول به ، وحذف القسم الخامس بِمَرّةٍ " مِنّا " ، وكان شبه جملة حرفيًا ، نَعَتَ المضاف إليه " حِمًى " – فأخرج نفسه بهذا وذلك " طَلَعَتْ " ، مِنْ جُمْلَةِ من يُعَزّيهم ؛ فإنه إذا عَزّى أحَدٌ في نص المنظوم نفسه ، لم يَلْزَمِ الناثرَ أن يَدّعِيَ فيمن يُعَزّيهم ! فأما في القسم السادس فقد حول فعل الرَّعْي الماضي المتعدي المتصلة به تاء التأنيث وضمير " حِمًى " الغائب المفعول به " رَعَتْهُ " ، إلى فعل الرُّتُوع الماضي اللازم المتصلة به تاء التأنيث الواصل إلى ضمير " حِمًى " الغائب نفسه بحرف الجر الظَّرْفِيّ " في " المتعلق به " رَتَعَتْ فيه " ؛ وكأنه يعوض حرف " مِنْ " الذاهب في القسم الخامس ! ولكنْ لاختلاف الفعلين (رَعى ، رَتَعَ) أثرًا واضحًا ؛ فإنّ الحِمى المَرْعِيّ كَلأً أكَلَتْه المصائبُ ، فأما الحِمى المَرْتوعُ فيه ففضاءٌ لَعِبَتْ فيه المصائبُ ، ولا ريب في أن تشبيه الفقيد بالكَلأ المأكول ، أشَدُّ وَطْأةً من تشبيهه بالفضاء الملعوب فيه ، ولا يعرف الفقدانَ إلا مَنْ عاناه !

النَّمَطُ الثّالثُ لاحِقِيٌّ

في هذا النَّمَطِ يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ ويَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ لاحِقَةٌ ، مضافةٌ كأنها التوقيع الذي يَدّعي به الأديب العملَ لنفسه من بعد أن يفرغ منه! إنه نمط من تَكْبير النَّفَس ، تَخَرَّجَتْ فيه ثلاثة نماذج : واحد من نظم المنثور (٣) ، واثنان من نثر المنظوم (٤ ، ١٠) ، ولكن اختلفت بينها وظائف اللواحق ، على النحو الآتي :

١ وَظيفَةُ التَّعْليلِ :

[١٠] في هذه الوظيفة تُعَبّرُ اللاحقة في النص اللاحق ، عن مَعْنًى ليس من معاني النص السابق ، ولكنه ينزل منها منزلة العِلّة ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَي

النموذج الثالث (من نظم المنثور) ، في التعبير عن أنَّ صُحْبَةَ الْمَوتى خَيْرٌ مِنْ صُحْبَةِ مَنْ لا أَثَرَ له – تميزت تسعةِ الأقسام التركيبية الآتية :

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
مَنْ	رَضِيَ	مِنْ صِلَةِ الْإِخْوانِ	×	بِلا شَيْءٍ	فَلْيُواخِ	أَهْلَ	الْقُبورِ	×
إذا	كُنْتَ تَرْضى	مِنْ أَخٍ ذي مَوَدَّةٍ	إِخاءً	بِلا شَيْءٍ	فَواخِ	×	الْمَقابِرا	فَلا خَيْرُها يُرْجى وَلَا الشَّرُّ يُتَّقى وَلا حاسِدٌ مِنْها يَظَلُّ مُحاذِرا

وتَجَلَّى أن نص المنثور كله مهم للناظم عند الراوي ؛ فقد استحسن معناه الحكمي الداعي إلى استبقاء الإخوان المقصرين بالعتاب ، وقَبِلَ بِنْيَتَه النحوية الشرطية المناسبة لطبيعة النصح الغالبة على الحِكَم ؛ فأبقى عليها ، ثم أقبل ينظم أقسامه ببيتٍ طَويليٍّ الوزن الوافي المقبوض العروض والضرب ، ورائيٍّ القافية المفتوحة المؤسسة الموصولة بالألف :

فحَوَّل أداة الشرط الاسمية الشَّخْصيَّةَ في القسم الأول " مَنْ " ، إلى أداة الشرط الاسمية الظرفية المستقبلية " إذا = دَدَنْ " ، إعراضا عن معنى الوُقوع ، إلى معنى التَّوَقُّع ؛ وكأن الخوف ينبغي أن يكون مِنَ المآل لا الحال !

ثم حَوَّل جملة القسم الثاني الفعلية المتكونة ولمّا تكتمل ، من فعل الرضا الماضي وضمير اسم الشرط الغائب الفاعل المستتر فيه " رَضِيَ " – إلى جملة اسمية منسوخة بـ" كانَ " متكونة ولمّا تكتمل كذلك ، من اسمها ضمير المخاطب وخبرها الجملة الفعلية ذات فعل الرضا المضارع وضمير المخاطب الفاعل المستتر فيه العائد على اسمها " كُنْتَ تَرْضى = دَنْ دَدَنْ دَنْ " – إعراضا عن الماضي البسيط ، إلى الماضي المتجدد [1] ، واستنكارا أن يأتي وقت يكون فيها هذا الرضا قد استمر من قبله، وهي دقيقة لم يفكر فيها الناثر !

---

١ حسان : ٢٤٥ .

ثم أبقى الجارَّ " مِنْ = دَنْ " ، وحَوّل المجرور في القسم الثالث من مركب إضافي " صِلَةِ الْإِخْوانِ " ، إلى مفرد منعوت بمركب إضافي " أخٍ ذي مَــوَدَّةٍ = دَدَنْ دَنْ دَدَنْ دَدَنْ " ، وآثر المفرد " أخٍ " ، الذي يُعَلِّقُ المنصوح بأحــد إخوانــه - علــى الجمع الذي يَعُمُّهُمْ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ؛ وكأن صفة الأخوة ينبغي أن تقتــصر علــى أفــراد كاملين بأنفسهم ، ولكن في نص المنثور معنى اكتمال الإخوان بعضهم ببعض ، فمــا يسيء صَنيعَه أحدُهم ، يمحو أثرَه آخرُ بحُسْنِ صَنيعِه !

ثم استفاد من جواز تعدي فعل القسم الثاني ؛ فأضاف بالقسم الرابع مفعولا به " إِخاءً = دَدَنْ دَنْ " ، يُعَوِّضُ به كلمة " صِـلَةٍ " ؛ فعجــز عــن شــأوها ، لــدلالتها الصريحة دون " إِخاءً " ، على تنافع الإخوان بمِثْل التَّهادي - ومــن معــاني الــصِّلَةِ المُكافأة ، وربما كان من معانيها الهَدِيّة [1] - فضلا عن استغنائه عن إضافة " إِخــاءً " أصلا ، بتقدم كلمة " أخٍ " !

ثم أبقى القسم الخامس كما هو في نص المنثور من جارٍّ تَعْــدَوِيٍّ ومجــرور مركب إضافي مبدوء بــ" لا " اسمٍ بمعنى " غَيْــر " " بِــلا شَــيْءٍ = دَدَنْ دَنْ دَنْ " ، ولكنه شَبَّهَه بالجملة ، ونَعَتَ به المفعول به " إِخاءً " ، بعدما كان الجار متعلقا بفعــل القسم الثاني ؛ فلم ينج من تهمة إقحام " ذي مَوَدَّةٍ " ، لإقامة الوزن ، بتنــاقض كَــوْنِ الأخ ذا مودة وكَوْنِ إخائه بلا شيء ؛ فلولا بَذْلُ أشياءَ كثيرةٍ ، لم تكن هذه المودة !

ثم أبقى القسم السادس جوابَ شرط القسم الأول ، مُقْتَرِنًا بفاء الربط ، جملــةً فعليةً ذات فعلٍ من صِيَغِ الأمر مستتر فيه فاعله ، ولكنه جعله في صيغة فعل الأمــر المستتر فيه فاعله ضمير المخاطب " فَواخِ = دَدَنْ دَ " ، وكــان فــي صــيغة الفعــل المضارع المقترن بلام الأمر المستتر فيه فاعله ضمير الغائب على ما يلائم مرجعــه في النص " فَلْيُواخِ " - فلا يؤمر بفعل الأمر إلا المخاطب - ولم يتكلف جعلــه فــي صيغة المضارع " فَلْتُواخِ " ، التي لا يستقيم بها الوزن . ولكنني أَعْجَبُ كثيــرا مــن

---

١ ابن منظور : و ص ل .

اجتماعهما على تسهيل همزة كلا الفعلين اللذين كانا من مادة واحـــدة " ء ، خ ، و " ، وتَسْهيلُها عَربيٌ أَقَلُّ من تَحْقِيقها [١] !

ثم لم يجد للقسم السابع مكانا ، وكان مفعولا به " أَهْلَ " ، لفعل القِسْمِ السادس؛ فحذفه اعتمادا على دلالة مجاز القسم الثامن " الْمَقابِرا = نْ دَدَنْ دَدَنْ " ، الذي صار مفعولا به ، من بعد أن كان مضافا إليه " الْقُبورِ = نْ دَدَنْ دَنْ " ، وهذا القسم الثـامن في النصين ، جَمْعٌ يدُلُّ على مواضع دفن الموتى ، ولكنه صار بحذف القسم الـسابع من نص النظم يحتمل من الدعوة إلى الانقطاع من المؤاخاة ، ما لا يحتمله في نـص المنثور ؛ إذ لا يمتنع في المجاز ، مؤاخاة الموتى ، وربما جَعَلَ الأصدقاء المُقَصِّرين موتى ، فهو ينصحه إذا ما تَمَسَّكَ بهم أن يَعُدَّهُمْ في الموتى !

ثم أضاف القسم التاسع ، علةً واضحةً (سلامة صُحْبَةِ المقابر) ، يُسَوِّغ بها مقاطعة الإخوان المزيفين – وإن خسر ذهاب فِطْنَةِ المتلقي في تَسْويغها كُلُّ مَـذْهَب ، مِنْ مِثْلِ صليِّ الأخ بِحَرِّ كَمَدِه على إخوانه المزيفين وعلى الدنيا كلها – ببيتٍ ثَنَّى بـه البيت الأول الذي نظم به نص المنثور كله ، واستأنف بفاء السببية ثلاثَ جمل اسـمية متعاطفة ، يبدو أنه رغب في أن تتكافأ بناها النحوية ، وتتكامل " فَلا خَيْرُهـا يُرْجـى وَلا الشَّرُّ يُتَّقى وَلا حاسِدٌ مِنْها يَظَـلُّ مُحـاذَرا [٢] = دَدَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَنْ دَدَنْ دَ دَدَنْ دَدَنْ " ؛ فلم يستمر له مـا رغـب ؛ إذ باعَـدَتِ الثانيةُ الأولى قليلا ؛ فلم يستطع أن يُرَكِّبَ مبتدأها تَرْكيبًا إضافيًّا ، فعَرَّفَـه بــ" أل " نيابة عن ضمير الغائبة المضاف إليه . ثم باعدَتْهُما الثالثةُ كثيرا ؛ إذ لـم يـستطع أن يُرَكِّب المبتدأ ولا أن يُخْبر بجملة فعلية مبنية للمجهول ؛ فأخبر بجملة اسمية منـسوخة

---

١ ابن منظور : ء خ و . إن الناظم بغدادي كالناثر ، ولكن بينهما أكثر من قرنين !

٢ ولم تضبط في المصدر ذال " مُحاذرا " ، ولا بد أن تفتح ، لأن المراد أن مُؤاخِيَ القبور لا يُحاذَرُ فيها أيُّ حاسد كما يفعل بين الأحياء . وعدم كسر هذه الذال ، عيب من عيوب حركات القافيـة ، يُسَمّى سِناد الإِشْباع – المعري : ١٢/١ – إذ حقها الكسر ، لغلبة أسماء الفاعل وصـيغ منتهـى الجموع وما إليهما على كَلِمِ القوافي المؤسسة . وقـال المحقـق – ٦٩/٥ – : " كـذا بالأصـل والمختصر ، وعجزه في أنباه – هكذا وهي بكسر الهمزة – الرواة ١٢٢/١ : وَلا حاسِدًا مِنْها تَظَلُّ مُحاذِرا " ، ولا بأس ، ولكن الذي بالمختصر رَفْعُ " حاسِدٌ " !

خَبَرُها اسم مفعول ، بَدَتْ كزيادة الأديم ، بعدما أحاطت الجملتان الأولَيان بطَرَفَيْ ما يكون من خير ومن شر ، إلا أن تُفْهَمَ على التَّنويه من الشرّ المُتَّقى بالحاسد المُحاذَر ، على طريقة قول الحق – سبحانه ، وتعالى ! – : " فيها فاكِهَةٌ وَنَخلٌ وَرُمّانٌ " ؛ قال ابن عاشور : " عَطْفُ " وَنَخلٌ وَرُمّانٌ " عَلى " فاكِهَةٌ " ، مِنْ بابِ عَطْفِ الْجُزْئيِّ عَلى الْكُلِّيِّ تَنْويهًا بِبَعْضِ أفْرادِ الْجِنْسَيْنِ "[١] .

٢ وَظيفَةُ التَّوْكيدِ :

[١١] أما في هذه الوظيفة فتُعَبِّرُ اللاحقة في النص اللاحق ، عن معنى من معاني النص السابق ، وتُؤَكِّدُه به ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَي النموذج الرابع (من نثر المنظوم) ، في التعبير عن عَوْدَةِ سَيِّدٍ غائِبٍ – تميزت خمسة الأقسام التركيبية الآتية :

٥	٤	٣	٢	١
×	كَعَوْدِ الْحُلِيِّ إلى الْعاطِلِ	ظافِرًا	إلى حَلَبِ	وَعُدْتَ
وَالْغَيْثِ إلى الرَّوْضِ الْماحِلِ	عَوْدَ الْحُلِيِّ إلى الْعاطِلِ	×	إلى مُسْتَقَرِّ عِزِّه	وَعادَ مَوْلانا

وتَجَلَّى أن الرابع منها هو أهم أقسام نص المنظوم للناثر عند الراوي ؛ فقد استحسن صورته الفنية (رجوع الزينة إلى فاقدتها) ، التي تجعل السيد زينة بلده التي يَتَجَلَّى بها ويَتَخَفَّى مِنْ غَيْرِها – وقَبِلَ مَوْقِعَه مفعولا مطلقا لفعل القِسْمِ الأول ، وبِنْيَتَه مِنْ كافٍ بمعنى مثل فمضاف إليه مصدر فمضاف إليه جمع تكسير بمعنى فاعل المصدر فجارٌّ غائي متعلق بالمصدر ومجرور مشتق بمعنى نعتٍ محذوفٍ تقديره " فتاة " – فأبقاه إلا الكاف بمعنى مثل ؛ فقد حذفها ، وأقام المصدر في موقعِها الأحقِّ هُوَ به ، لَمّا رأى حذفها أقوى دلالة على الصورة من ذكرها ، فضلا عن وقفه على آخره المتحرك بتَسكينه ، بعدما كان الوقف على آخرِه المتحرك بإشباع حركته .

١ ابن عاشور : ٤٢٥٨/١ .

ثم أضاف القسم الخامس ، صورة شبيهة (رجوع المياه إلى البساتين المُجْدِبة) ، على وفق الرابع ، يؤكد بها صورته الفنية ، ويكرر بنيته النحوية ، ويعطف بواو واحدة ، " الغَيْثِ " على " الْحُليِّ " ، والجارَّ " إلى " على مثله ، ليتقي ركاكة إعادة ذِكْرِ " عَوْدَ " . ولكنه يزيد بين الجارّ وبين المشتق ، المعرفَ بأل " الرَّوْضِ " ، ليكون مجرورَه ومنعوتًا باسم الفاعل " الْماحِلِ " ، وهو قد حَذَفَ نظيرا من القسم الرابع قبلَ " الْعاطِل " ، يُقَدَّرُ بـ" الْفَتاةِ " - فيُعَوِّضُ بذِكْرِه بنيةَ هذا القسم الخامس ؛ فتُكافِئُ أربعُ كلماته أربعَ كلمات القسم الرابع !

ثم أقبل ينثر سائر أقسام النص ، فأسندها في القسم الأول ، إلى معرف بالإضافة إلى ضمير المتكلمين " وَعادَ مَوْلانا " ، وَلاءً للسَّيِّد ، وتَحَرُّجًا من مخاطبته بضميره مُفْرَدًا صَرِيحًا كما خاطَبَه صاحِبُ نص المنظوم [1] ، على رغم تمسكه من نص المنظوم ، بواو العطف مع فعل ماضي العودة ، ولا معطوف عليه قبلها !

لقد كانت واو العطف تتصدر أحيانا نَصَّ الإنشاد ؛ فيبقيها من يحرص على استيعاب الوزن ، أنْ يَعوقَه أيُّ عائق ؛ فيُحْمَلُ الموضع على عطف ما بعدها على متروك من الإنشاد قبلها ، حَمْلًا لغويا ، ويذهب العقل في تقديره كل مذهب - ويحذفها من يحرص على استيعاب اللغة ، أنْ يَعوقَه أيُّ عائق ؛ فيُحْمَلُ الموضع على الخَرْم (العلة الجارية في أول البيت مجرى الزحاف) ، حملًا عروضيا ، ويذهب النطق والسمع في تعويضه كل مذهب [2] .

ثم لم يشأ الناثر في القسم الثاني وقد تمسك بحرف الجر الغائي المتعلق بفعل القِسْمِ الأول " إلى " ، أن يتمسك بالمجرور " حَلَبٍ " ، وهو عَلَمٌ على غير بلده ، ولا أن يستبدل به اسمَ بلده ، وآثر مركبًا إضافيًّا من مجرورٍ اسمِ مكانٍ مشتقٍّ فمضافٍ

---

١ يختص الشعر بمخاطبة السيد بضميره مفردا صريحا ، والمتنبي صاحب بيت النموذج ، هو المُسَوِّي بين مَنْزِلَتَيِ الشعر والسِّيادة ، بقوله - العكبري : ٣/٨٤ - :

نادَيْتُ مَجْدَكَ في شِعْري وَقَدْ صَدَرا يا غَيْرَ مُنْتَحِلٍ في غَيْرِ مُنْتَحِل

٢ ابن جني : ١٠ .

إليه مصدرٍ فمضافٍ إليه ضميرِ غائبٍ " مُستَقَرِّ عِزِّه " - يَتَعلَّقُ فيه بـصفة " حَلَـب الشَّهْباءِ نَفْسِها !

ولم يجد الناثر إلى القسم الثالث " ظافِرًا " سبيلا ، فحذفه ؛ فالغالب على الظَّفَر أن يكون عن حرب ، وليس المقام لها ، وربما استغرب تشبيه عودة السيد الغائب إلى بلده ظافِرًا ، بعودة الحلي إلى العاطل ، فآثر السلامة منه - وهو لا يخلو وَجْهُ الشَّبَه فيه من معنى التَّقْييد وإن كان بالحُليِّ !

٣ وَظيفَةُ التَّكْميلِ :

[١٢] وأما في هذه الوظيفة فتُعَبِّرُ اللاحقة في النص اللاحق ، عن معنى ليس من معاني النص السابق ، ولكنه يُكَمِّلُه ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَي النموذج العاشر (من نثر المنظوم) ، في التعبير عن مُتْعَةِ وِصالٍ - تميزت أربعة الأقسام التركيبية الآتية :

١	٢	٣	٤
×	كَأَنّني عانَقْتُ رَيْحانَةً	تَنَفَّسَتْ في لَيْلِهَا الْبارِدِ	×
فَـ	لِلّه كِتابُه مِنْ رَيْحانَةٍ	تَنَفَّسَتْ في لَيْلِهَا الْبارِدِ	وَعَطَّرَتْ مَعاطِسَ الْأَسْماعِ بِنَشْرِهَا الْوارِدِ

وتَجَلّى أن الثالث منها هو أهم أقسام نص المنظوم للناثر عند الراوي ؛ فقد استحسن صورته الفنية (تَضَوُّع النَّفَس الدَّفيء في الليل البارد) ، التي تعبر عن إحساس الحبيب بحبيبه ، وقَبِلَ مَوقِعَه نعتا لـ" رَيْحانَةً " في آخر القسم الثاني ، وبِنْيَتَه جملةً فعليةً من فعل التنفس الماضي اللازم المتصلة به تاء التأنيث فضمير " رَيْحانَةً " الغائبة الفاعل المستتر فيه فالجار الظرفي " في " المتعلق به فالمجرور المركب الإضافي " لَيْلِها " فنعت المضاف اسم الفاعل المتصل بأل " الْبارِدِ " - فأبقاه ، وإن نَعَتَ بالجملة المجرورَ ، بعدما كانت نعتَ منصوبٍ ؛ فالمجرورات والمنصوبات من أكثر العناصر النحوية تَلاقِيًا ، ولكنه وقف على آخره المتحرك بتَسكينه ، وكان الوقف على آخره المتحرك بإشباع حركته !

ثم أضاف القسم الرابع ، صورةً أخرى (تأثير الكلام الجميل في الآذان كتأثير العطر الجميل في الأنوف) ، مترتبة على صورة القسم الثالث ، يُكَمّله بها ، ويُقَرِّر بنيته النحوية ؛ فيعطف عليه بالواو جملة فعلية من فعل التعطير الماضي المتعدي المتصلة به تاء التأنيث فضمير " رَيْحانَة " الغائبة الفاعل المستتر فيه فالمفعول به المركب الإضافي فالجار الاستعانيّ والمجرور المركب الإضافي فنَعْت المضاف اسم الفاعلِ المتصل بأل ، ويتقي شبهة السخرية من بَهْرَجَةٍ خارجية لا طائل وراءها ؛ فإن الريحانة المتنفسة في ليلها البارد ، مَثَلُ العلم بلا عمل [1] - فأما إذا أضاف إلى تَنَفُّسِها تَعْطيرَ الأسماع بنشرها الوارد ، فإنه ينضاف إليه أثرٌ داخلي ، فيكون كالعلم قارنَه عَمَلٌ ، فضلا عن منعه اتزان التعبيرين " تَنَفَّسَتْ في لَيْلِهَا الْبارِدِ - وَعَطَّرَتْ (...) بِنَشْرِهَا الْوارِدِ " ، الذي يَرْتَدُّ به النثر منظوما ، على رغم وقفه على آخره المتحرك بتسكينه !

ثم أقبل بنثر القسم الثاني ، فحَوَّلَه من تَشْبيه اصطلاحيٍّ بجملة اسمية منسوخة من أداة النسخ التشبيهية فاسمها ضمير المتكلم فخبرها الجملة الفعلية من فعل ماض وفاعل ضمير متكلم ومفعول به نكرة " كَأَنَّني عانَقْتُ رَيْحانَةً " - إلى تَعَجُّبٍ عُرْفيٍّ بجملة اسمية من خبر مقدم شبه جملة حرفي فمبتدأ مؤخر مضاف إلى ضمير غائب لم يَجْرِ له ذِكْرٌ فحال شبه جملة حرفي " لِلّهِ كِتابُه مِنْ رَيْحانَةٍ " . ولئن كان التعجب أوغل في إثبات معنى المشبه به للمشبه ، والتشبيه بـ" كَأَنَّ " ، أقوى وجوه التشبيه بالأدوات - لقد تمسك بلب الأسلوبين " رَيْحانَة " ؛ فإنْ جَرَّها بـ" مِنْ " البيانية بعد نصبها بفعل العناق ، فإن المجرورات والمنصوبات ، أقرب العناصر التركيبية تلاقيا!

ثم انفرد بالقسم الأول من نص النثر ، حرف الفاء ، ليعبر هو وضمير الغائب الذي لم يَجْرِ له ذِكْرٌ ، عن انفصاله من سياقه ، وأنْ لم ينقطع النـاثرُ لنص المنظوم (أساس صفة الطبيعية) !

---

[1] في الحديث - النسائي : ٢٩/٥ ، ٥٣٨/٦ - : " مَثَلُ الْمُنافِقِ الَّذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحانَةِ ريحُها طَيِّبٌ وَطَعْمُها مُرٌّ " !

النَّمَطُ الرَّابِعُ حاشَوِيٌّ

في هذَا النَّمَطِ يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ ويَنْتَثِرُ الْمَنظومُ ، فإذا في النص اللاحق عبـارةٌ حاشيةٌ ، مضافةٌ كأنها الغذاء يُرَبّي به الأديبُ العملَ في أثنائه من غير أن يُنْتَبَهَ إليه ! إنه نمط من تَصْغير النَّفْس ، تَخَرَّجَ فيه نموذجان : واحد من نظـم المنثـور (٥) ، وواحد من نثر المنظوم (٩) ، ولكن اختلفت بينهما وظيفتا الحاشيتين ، على النحـو الآتي :

١ وَظيفَةُ التَّعْليلِ :

[١٣] في هذه الوظيفة تُعَبِّرُ الحاشية في النص اللاحق ، عن معنى ليس مـن معاني النص السابق ، ولكنه ينزل منها منزلة العِلَّة ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَـي النموذج الخامس (من نظم المنثور) ، في التعبير عـن أنَّ التَّـسليمَ للـشَّدائِدِ حيلَـةُ الضَّعيفِ – تميزت سبعة الأقسام التركيبية الآتية :

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
قيلَ	لِأعرابيٍّ	ما أعْدَدْتَ لِلْبَرْدِ	×	قالَ	×	طـــولَ الرِّعْدَةِ
قيلَ	×	ما أعْدَدْتَ لِلْبَرْدِ	فَقَدْ جاءَ بِشِدَّةْ	قُلْتُ	دُرّاعَـــةَ عُرْيِ	تَحتَها جُبَّةُ رِعْدَةْ

وتَجَلّى أن نص المنثور كله مهم للناظم عند الراوي ؛ فإنه إذا أنشأ النمـاذجَ الأخرى الحوارُ الذي يؤخذ منه ويُهْمَل ، فإن هذا النموذج هو في نفسه حـوار واحـد ساخر صادم ذو طرفين (سؤال وجواب) ، لا وجود له إلا بالحوار ، وقـد عـرف الناظم ذلك ، واستحسنه ، وقَبِلَ بِنْيَتَه النحوية – فإن تركيب الحـوار مـن التراكيـب المُتَنَسِّقَة ؛ لأنه مُجَهَّزٌ بسؤاله وجوابه ، لينتظم بشَطْرَيْ بيتٍ أو بَيْتَيْ قطعةٍ أو قِطْعَتَيْ قَصيدة – فأبقى عليه ، ثم أقبل ينظم أقسامه ببيتين رَمَلَيَّي الوزن المجـزوء الـصحيح العروض والضرب ، ودالِيَّي القافية المفتوحة المجردة الموصولة بالهاء الساكنة :

أما القسم الأول فأبقى عليه من غير تحويل شيء ، صَدْرَ جملةٍ فعليةٍ مِنْ فعل القول الماضي المبني للمجهول " قيلَ = دَنْ دَ " ، حرصا على تَجْهيلِ السائل ؛ فافتقـد

الحوارُ في نصي المنثور والنظم ، أحدَ طرَفَيْهِ ؛ فذهبت نفسُ المتلقي فيه كلَّ مَذْهَب ، من خلال الطَّرَفِ المعروف في الأقسام الآتية ؛ فلدينا في القسم الثاني من نص المنثور طَرَفُ الأعرابي ، وفي القسم الخامس من نص النظم طَرَفُ ضمير الشاعر المتكلم ؛ فيكون الحوار في نص المنثور بين حَضَريٍّ وبَدَويٍّ ، ما دام الأعرابي مذكورا صراحة مسؤولا على جهة السخرية (حضري مطمئن إلى جدران بيته وتعداد ألحِفَته ، وبدوي شارد ، لا يملك إلا بداوته) - وفي نص النظم بين الشاعر المُحارِف (المحروم) ، الذي لا يكسبه الشعر ما يدفئه ، وبين غيره من الأغنياء الذين يدفئهم غناهم !

ولما القسم الثاني من الجارِ التَّبليغيِّ المتعلق بالفعل السابق والمجرور النكرة " لِأعرابيٍّ " ، فحذفه بمرة ، توجيهًا للحوار إلى نفسه فيما بعد ، واستطرافًا لتعمية المقول له - فلم يَقُلْ مَثَلًا : قيلَ لي - حتى يُجيب !

وأما القسم الثالث فأبقى عليه من غير تحويل ، جملةً فعلية من مفعول به اسم استفهام مُقَدَّمٍ على فعله فِعْلِ الإعداد الماضي المتصل بفاعله ضمير المخاطب وجارٍّ تَعليليٍّ ومجرور معرف بأل - صَدْرَ المقول الذي ناب عن القائل " ما أَعْدَدْتَ لِلْبَرْدِ = دَنْ دَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ دَ " .

ثم أضاف القسم الرابع ، عَجُزَ المقولِ ، جُمْلَةً مستأنفة بالفاء السببية ، من فعل المجيء الماضي المقترن بقد وضمير " البَرْدِ " الغائب الفاعل المستتر فيه وجارٍّ مُصاحَبيٍّ مُتَعَلِّقٍ به ومجرورٍ نكرةٍ " شِدَّة " ، نَصَبَه للبيت الأول على وزن " رِغْدَة " آخر كلم نص المنثور التي اتخذها كلمة قافية البيت الثاني موقوفا عليهما بإبدال التاء هاء " فَقَدْ جاءَ بِشِدَّهْ = دَدَنْ دَنْ دَدَدَنْ دَنْ " ؛ فاصطنع ما أكمل به بيته الأول على وَفْقِ ما سيكتمل به الثاني ، وعَلَّلَ السؤال المطلق في صَدْرِه ، وبالغ في البَرْدِ المسؤول عنه ، زِيادَةً في التأثير بالجواب ؛ فاكتسى نَصُّه من الإطناب غِلالَةً حَضَرِيَّةً، بمثل ما اكتسى نصُّ المنثور من الإيجاز شَمْلَةً بَدَوِيَّةً !

ثم أبقى فعل القول الماضي في القسم الخامس " قالَ " ، صدرَ جملة الجواب الفعلية المعطوفة بفاءٍ محذوفة مقدرة ، ولكنه أسنده إلى ضمير متكلم يُدير به الحوار

على نفسه ، تذكيرا بحُرقَة الأديب (حِرْمانه) ، التي يتواصى بها الأدباء أبدا – من بعد أن كان مسندا إلى ضمير " أعرابيٌّ " الغائب " قُلْتُ = دَنْ دَ " .

ثم أضاف القسم السادس صَدْرَ مقول الجواب ، مركبا إضافيا مُضافُه مفعول به لفعل الإعداد الماضي المحذوف هو وفاعله ضمير المتكلم المتصل به المفهوم من صَدْر مقول السؤال " دُرّاعَةَ عُرْيٍ = دَنْ دَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ " – لينعته بالقسم السابع الذي حَوّلَه إلى جملة اسمية خبرها شبه جملة ظرفيٌّ مُقَدَّمٌ على مبتدئها المركب الإضافي " تَحتَها جُبَّةُ رِعْدَةٍ = دَنْ دَدَنْ دَنْ دَدَنْ دَنْ " ، بعدما كان القسم السابع من نص المنثور " طولَ الرِّعْدَةِ " ، كالقسم السادس من نص النظم ، مركبا إضافيا مُضافُه مفعول به لفعل الإعداد الماضي المحذوف هو وفاعله ... ؛ فيستحدث صورة فنية شديدة التركيب ، مستفادة بالتأمل من القسم السابع من نص المنثور نفسه ؛ إذ الرِّعْدَةُ حال من يفتقد دفء الملبس ، فعُرْيُه ورِعْدَتُه مُتَكامِلان مُتَداعِيان ظاهرا وباطنا ، ورَضِيَ في سبيل ذلك بخُسْران معنى اتصاف الرِّعدة بالطول في نص المنثور ؛ فاكتسى نصه من الإطناب غِلالَةً أخرى حَضَرِيَّةً ، بمثل ما اكتسى نصُّ المنثور من الإيجاز شَمْلَةً أخرى بَدَوِيَّةً ، على أنه كان بتكامل العُرْيِ والرِّعْدَةِ ، أكثر توفيقا إلى إضافة القسم السادس ، منه إلى إضافة القسم الرابع !

٢ وَظيفَةُ التَّوكيدِ :

[١٤] أما في هذه الوظيفة فتُعَبِّر الحاشية في النص اللاحق ، عن معنى من معاني النص السابق ، وتُؤَكِّدُه به ؛ فإذا وازنّا بين عناصر طَرَفَيِ النموذج التاسع (من نثر المنظوم) ، في التعبير عن أنَّ سوءَ الْعاقِبَةِ مِنْ سوءِ الْفِعْلِ – تميزت خمسة الأقسام التركيبية الآتية :

٥	٤	٣	٢	١
وَصَدَّقَ ما يَعتادُه مِنْ تَوَهُّمِ	ساءَتْ ظُنونُه	×	إِذا ساءَ فِعْلُ الْمَرْءِ	×
وَيُصَدِّقُ تَوَهُّمَهُ الَّذي يَعتادُه	لَمْ يَزَلْ سوءُ الظَّنِّ يَقْتادُه	وَحَنظَلَتْ نَخَلاتُه	لَمّا قَبُحَتْ فَعَلاتُه	فَإِنَّه

وتَجلّى أن نص المنظوم كله مهم للناثر عند الراوي ؛ إذ قد غلب عليه مَعْنًى حِكْميٌ واحد ؛ فاستحسنه ، وقَبِلَ بِنْيَتَه النحوية ؛ فأبقاه ، ولكنه وجده مركبا من ثلاثة عناصر : سوء الفعل ، وسوء الظن ، وتصديق التوهم ، انْتَظَمَ بأولها وثانيها صَدْرُه ، وبثالثها عَجُزُه - انتظامًا مُخْتَلًّا ؛ فأضاف إليها بمرارة الحصاد عنصرًا رابعًا ، لاءَمَ به العنصرَ الأول ؛ فتَوازَنَتِ العناصرُ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ ، وانضاف إلى توازنها تَرصيعُها؛ فكأنما أراد تَعْويضَ ما سيخَسَرُه نصه من خصائص المنظوم الوَزْنيَّة بالتَّوازُنِ ، و من خصائصه القافَويَّةِ بالتَّرْصيع !

لقد وجد القسم الثاني " إذا ساءَ فِعْلُ الْمَرْءِ " ، صدر جملة شرطية من أداة شرط اسمية ظرفية مستقبلية وجملة شرط فعلية من فعل السوء الماضي اللازم وفاعله المضاف إلى معرف بأل - فحَوّلَ " إذا " ، إلى " لَمّا " الحينية غير الشرطية ولا المستقبلية [1] ، واستبدل بفعله فعلَ القُبْح اللازم المتصل بتاء التأنيث ، وبفاعله جمعَ مؤنث مضافا إلى ضمير غائب لم يَجْرِ له ذِكْرٌ ، ملاءمة للقسم الثالث " حَنْظَلَتْ نَخَلاتُه " ، الذي سيعطفه على هذا القسم الثاني " قَبُحَتْ فَعَلاتُه " - والقسم الثاني نفسه هو سببِ تفكيره في إضافة القسم الثالث - فأنزلَ الجملةَ مِنْ سَماءِ الحِكْمة المُطْلَقَة إلى أرضِ الحَدَثِ المُقَيَّدِ .

ثم أضاف القسم الثالث في معنى مَرارة حَصاد المرء ، عبارةً فنية عن سوء فعلاته في القسم الثاني ، بجملةِ فعلية ماضوية من فعل غير دائر في الكلام منحوت من اسم العين " حَنْظَلَ " وفاعلٍ جمع مؤنث مضاف إلى ضمير الغائب الذي لم يَجْرِ له ذِكْرٌ " حَنْظَلَتْ نَخَلاتُه " ، وأعجبه ما فعل بهذه الجملة ؛ فحَوّل لها جملة القسم الثاني ، ثم عطفها عليها بالواو ؛ فوازَنَتْ مَبْناها ، وأكَّدَتْ مَعْناها ، وكان ضميرُ الغائب الذي لم يَجْرِ له ذِكْرٌ ، مثل فاء القسم الأول الذي لا معطوف عليه قبله - دليلَ انفصال نص النثر من سياق أكبر منه ، وإن كان هذا دليلا لفظيًّا ، وذاك دليلا معنويًّا. ولو أظهر هذا الضمير ، كما ظهر في نص المنظوم ، وتمسك بتوازن

---

[1] ابن هشام : ٤٨٥/٣ ، وما بعدها .

القسمين – لقال : " قَبُحَتْ فَعَلاتُ الْمَرْءِ وَحَنْظَلَتْ نَخَلاتُ الْمَرْءِ " ؛ فَانطَفَأَتْ حَرارةُ التَّوازن بِبَرْدِ الرَّكاكة !

ثم جعل القسم الرابع مُتَعَلَّق " لَمّا " الحينية ، كما كان جواب " إذا " الشرطية، ولكنه حوّل الجملة الفعلية المثبتة من فعل السوء وفاعله المركب الإضافي " ساءَتْ ظُنونُه " ، إلى جملة اسمية منسوخة بفعل مجزوم بحرف النفي والقلب واسمه مضاف إلى معرف بأل وخبره جملة فعلية مضارعية مستتر في فعلها فاعله ضمير " سوءُ " الغائب ومتصل به مفعوله ضمير الغائب الذي لم يَجْرِ له ذِكْرٌ " لَمْ يَزَلْ سوءُ الظَّنِّ يَقْتادُه " ، ليحفظ على نصه بعض معنى المستقبلية الذي فقده باستبدال " لَمّا " من " إذا " .

ثم أبقى جملة القسم الخامس " صَدَّقَ ما يَعْتادُه مِنْ تَوَهُّم " ، فعلية معطوفة بالواو ، ولكنه عطفها على جملة خبر ناسخ القسم الرابع وكانت معطوفة على جملة القسم الرابع كلها ، وأبقى مادة فعلها ، ولكنه جعله مضارعا " يُصَدِّقُ " وكان ماضيا ، وأبقى فاعله ضمير الغائب المستتر فيه ، ولكنه أعاده إلى ما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ ، وكان عائدا إلى " المَرْءِ " في القسم الثاني ، وأبقى اشتمال الجملة على اسم موصول – وإن صار اسما آخر – وكلمة " تَوَهُّم " ، ولكنه قَدَّمَها مفعولا به مضافا إلى ضمير الغائب الذي لم يَجْرِ له ذِكْرٌ ، وأَخَّرَ عنها الاسم الموصول نعتًا لها " تَوَهُّمَهُ الَّذي " ، وكان الاسم الموصول هو المفعول به ، وكانت كلمة " تَوَهُّم " مجرورة بـ" مِنْ " البيانية المتعلقة بفعلِ صلةِ الموصول – ثم أبقى صلة الموصول كما هي !

ثم أضاف القسم الأول ، صَدَّرَ جملة إطارية كبرى معطوفة بالفاء على متروكٍ من سياقٍ أكبرَ من نص النثر ، مُتَكَوِّنًا من أداة التوكيد والنسخ وضمير الشأن " إنَّه " ، ليجعل خبرَها مُرَكَّبَ الحكمة بعناصره كلها ، فيَخْتَلَّ استقلالُ النص ، كما اختل بضمير ما لم يجر له ذكر ، ويَظْهَرَ انفصالُه على رغم الحكمة ، وتَسْتَمِرَّ مَيْزَةُ المنظوم حين يُنْثَرُ !

الخاتِمَةُ

[١٥] لم يكن بُدٌّ في كشف خَصائِص التَّفْكير العَروضيّ اللُّغَويّ بين نَظْمِ المَنْثور ونَثْرِ المَنظوم الطَّبيعيَّيْنِ ، من تتبع نصوصهما ، ثم استِصفائها ، ثم ترتيب صَفْوَتِها ، ثم الانقطاع لنقد ما تَكَوَّنَتْ به من أعمال التَّحْديد (اختيار عناصر النص وإبدال بعضها من بعض وُصولًا إلى تَحْديد العنصر المناسب) ، والتَّرْتيب (تقديم بعض عناصر النص وتأخير بعضها وُصولًا إلى تَرْتيب الوضع المناسب) ، والتَّهْذيب (إضافة بعض عناصر النص وحذف بعضها وُصولًا إلى تَهْذيب المقدار المناسب) .

ولقد كانت هذه الأعمال من التعقيد ، بحيث يستحيل أن تدل عليها خصائصُ مُطْلَقَةٌ ؛ ومن ثم رأيت أن أُنَمِّطَ خصائص هذا التفكير العروضي اللغوي بين تلك النصوص ، على أنْماطٍ أظْهَرِيَّةٍ ، أُسَمّي النمط فيها بأظْهَرِ الأعمال فيه على التفكير ، وهو ربما اشتمل مع هذا العمل الأظْهر ، على أعمال أخرى أخْفى - ولكن النَّمَط المُسَمّى ، عَلَمٌ على هذه الأعمال كلِّها أظْهَرِها وأخْفاها - فإذا تَظاهَرَتْ هذه الأنماطُ في استيعاب الباحث والمتلقي ، تَجَلَّتْ لهما تلك الخصائص .

ولقد أفضى البحث إلى تَنْميط أربعة أنماط :

النَّمَطُ الأوَّلُ سابِقيٌّ ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ ويَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ سابِقَةٌ ، مُضافَةٌ كأنها العنوان الذي يَدَّعي به الأديبُ العملَ لنفسه من قبل أن يشرع فيه ! تَخَرَّجَ فيه نموذجان : واحد من نظم المنثور ، أدَّتْ فيه السابقةُ وظيفةَ التَّأسيس ؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق ، وأسَّسَتْ لها - وواحد من نثر المنظوم ، أدَّتْ فيه وظيفةَ التَّمْهيد ؛ فعَبَّرَتْ عن معنى من معاني النص السابق ، ومَهَّدَتْ لها .

النَّمَطُ الثّاني عارِضيٌّ ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ ويَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ ، فإذا النص اللاحق كلُّه عارِضَةٌ ، كأنها صورةٌ صَوَّرَ بها الأديب النص ، وصَوَّرَ نفسه في ظلاله ! تَخَرَّجَتْ فيه ثلاثة نماذج : اثنان من نظم المنثور ، أدَّتْ فيهما العارضةُ

وظيفةَ التَّقريب ؛ فصَوَّرت النص السابق ، ولكنها تَصرَّفَتْ فيه - وواحد من نثر المنظوم ، أدَّتْ فيه وظيفةَ التَّوثيق ؛ فصَوَّرَت النص السابق من غير أن تَتَصرَّف فيه.

النَّمَطُ الثّالثُ لاحِقيٌّ ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ لاحِقَةٌ ، مضافةٌ كأنها التَّوقيع الذي يَدَّعي به الأديبُ العملَ لنفسه من بعد أن يفرغ منه ! تَخَرَّجَتْ فيه ثلاثة نماذج : واحد من نظم المنثور ، أدَّتْ فيه اللاحقة وظيفةَ التَّعليل ؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق ، ولكنه منها بمنزلة العِلَّة - واثنان من نثر المنظوم ، أدَّتْ في أحدهما وظيفةَ التَّوكيد ؛ فعَبَّرَتْ عن معنى من معاني النص السابق ، وأكَّدَتْهُ - وأدَّتْ في الآخر وظيفةَ التَّكْميل ؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق ، وكَمَّلَتْها .

النَّمَطُ الرّابِعُ حاشَويٌّ ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ حاشِيَةٌ ، مضافةٌ كأنها الغذاء يُرَبّي به الأديبُ العملَ في أثنائه من غير أن يَنْتَبِهَ إليه ! تَخَرَّجَ فيه نموذجان : واحد من نظم المنثور ، أدَّتْ فيه الحاشية وظيفةَ التَّعليل ؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق ، ولكنه منها بمنزلة العِلَّة - وواحد من نثر المنظوم أدَّتْ فيه وظيفةَ التَّوكيد ؛ فعَبَّرَتْ عن معنى من معاني النص السابق ، وأكَّدَتْه .

وإذا كانت السابقةُ أعجَلَ إلى سَمْعِ المُتَلَقّي لأنها فاتِحَةُ الْعَمَلِ ، والعارضةُ أذْهَبَ من ضَبْطِه لأنها ناقِلَةُ الْعَمَلِ ، واللاحقةُ أبْقى في حِفْظه لأنها خاتِمَةُ الْعَمَلِ ، والحاشيةُ أخفى عن نَظَره لأنها باطِنَةُ الْعَمَلِ - كان في النمط الأول السابقيِّ مَعْنًى من تَقْديرِ النفْس (اصطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ بُنُوَّةً بمكانَةِ اللّاحِقِ مَعَ مَكانَةِ السّابِقِ) ، وكان في النمط الثاني العارضيِّ مَعْنًى من تَنْكيرِ النَّفْس (اصطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ يُفْني مكانَةَ اللّاحِقِ في مكانَةِ السّابِقِ) ، وكان في النمط الثالث اللاحقيِّ مَعْنًى من تَكْبيرِ النَّفْس (اصطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ يُقَدِّمُ مكانَةَ اللّاحِقِ على مكانَةِ السّابِقِ) ، وكان في النمط الرابع الحاشويِّ مَعْنًى من تَصغيرِ النَّفْس (اصطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ يُؤَخِّرُ مكانَةَ اللّاحِقِ عَنْ مكانَةِ السّابِقِ) !

وإذا كان النمطان الثاني العارضيُّ والثالث اللاحقيُّ ، أحفلَ بالنماذج من غيرهما ، وكان أكثرُ حَفْلِ النمط العارضيِّ إنما هو بنماذج نَظْمِ المنثور ، وأكثرُ حَفْلِ النمط اللاحقيِّ إنما هو بنماذج نَثْرِ المنظوم – كان تَنْكيرُ النَّفْس أغلَبَ على التَّفْكير العَروضيِّ اللُّغَويِّ عند نَظْمِ المنثور ، وتَكْبيرُها أغلَبَ عليه عند نَثْرِ المنظوم ؛ فدلَّتْ حالُ ناظم المنثور على اطْمِئْنانه إلى رَواجِ عَمَلِه ، ودلَّتْ حالُ ناثر المنظوم على خَشْيَتِه من كَسادِ عَمَلِه !

* *

المراجع :

- الأبشيهي (شهاب الدين أحمد) : " المستطرف في كل فن مستظرف " ، نشرة محمود توفيق الكتبي ، بميدان الأزهر من القاهرة ، ١٣٥٢هـ=١٩٣٣م .
- ابن أبي الإصبع المصري (أبو محمد زكي الدين عبد العظيم) : " تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن " ، تحقيق الدكتور حفني شرف ، ونشرة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة .
- ابن الأثير (ضياء الدين) : " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " ، تقديم الدكتورين أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، وتعليقهما ، وطبعة دار نهضة مصر بفجالة القاهرة ، ونشرتها .
- ابن أم معصوم (علي بن أحمد) : " أنوار الربيع في أنواع البديع " ، صورة مخطوطة في خزانة الآنسة المستشرقة ماري نلينو برومة ، بخط المؤلف ، فرغ منها في ١٠٩٣/١١/١٩هـ .
- ابن جني (أبو الفتح عثمان) " تفسير أرجوزة أبي نواس " ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، وطبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الثانية .
- ابن رشيق (أبو علي الحسن القيرواني) : " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، وطبعة ١٤٠١هـ= ١٩٨١م ، الخامسة ، ونشرة دار الجيل ببيروت .
- ابن عاشور (محمد الطاهر بن محمد التونسي) : " التحرير والتنوير " ، طبعة ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م ، الأولى ، ونشرة مؤسسة التاريخ العربي ببيروت .
- ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن) : " تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهليها " ، دراسة عمر ابن غرامة ، وتحقيقه ، ونشرة دار الفكر ببيروت ١٤١٥هـ=١٩٩٥م .
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري) : " لسان العرب " ، نشرة دار المعارف بالقاهرة .
- ابن منقذ (أسامة الأمير) : " البديع في نقد الشعر " ، تحقيق الدكتورين أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ومراجعة الأستاذ إبراهيم مصطفى ، ونشرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالجمهورية العربية المتحدة (سلسلة تراثنا) .

- ابن هشام (جمال الدين الأنصاري) : " مغني اللبيب عن كتب الأعاريب " ، تحقيق الدكتور عبد اللطيف محمد عبد اللطيف ، وشرحه ، وطبعة ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م ، الأولى بالكويت ، ونشرة المجلس الوطني (السلسلة التراثية ٢١) .
- الأصفهاني (علي بن الحسين القرشي) : " الأغاني " ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، طبعة ١٩٦٩م ، ونشرة دار الشعب بالقاهرة .
- البديعي (الشيخ يوسف) : " الصبح المنبي عن حيثية المتنبي " ، تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا ، ومراجعة عبده زيادة ، وطبعة دار المعارف بالقاهرة ، الثانية ، ونشرتها .
- حسان (الدكتور تمام) : اللغة العربية معناها ومبناها " ، الطبعة الثانية ١٩٧٩م ، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة .
- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر) : " ربيع الأبرار ونصوص الأخبار " ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، وطبعة ١٤١٢هـ=١٩٩٢م ، الأولى ، ونشرة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ببيروت .
- شاملة (http://www.shamela.ws) : " المكتبة الشاملة " ، الإصدار ٣,٨ .
- الصفدي (خليل صلاح الدين بن أيبك) : " الوافي بالوفيات " ، إشراف الدكتور إحسان عباس ، وطبعة سنة ١٩٦٩م ، ونشرة دار صادر ببيروت .
- العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين) : " شرح ديوان المتنبي " ، ضبط مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي وتصحيحهم وفهرستهم ، ونشرة دار المعرفة ببيروت .
- مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم (http://www.arpoetry.com) : "موسوعة الشعر العربي " ، الإصدار الأول ٢٠٠٩م .
- المعري (أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي) : " اللزوميات " ، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي ، نشرة الخانجي بالقاهرة .
- النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب) : " السنن الكبرى " ، تحقيق عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن ، وطبعة ١٤١١هـ=١٩٩١م ، الأولى ، ونشرة دار الكتب العلمية ببيروت .
- الوطواط (أبو إسحاق بن يحيى الكتبي) : " غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة " ، دون بيان .

* * *